أحمد خالد توفيق

السنجة



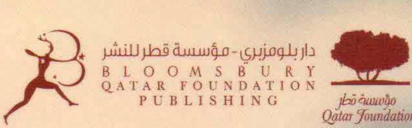
كان المختفي أو الفقيد روائيًّا. ويقال إنه على درجة من الشهرة، لكن الحقيقة أنه لا أحد يعرفه على الإطلاق، ولم يقرأ له أحدٌ حرفًا من قبل. أي أنه هو نفسه مصدر معلومة أنه أديب شهير نوعًا. الأدباء ينتحرون دائمًا في النهاية، رجال التحريات يعرفون هذا، لكنهم كذلك يعرفون أن الأدباء لا يبذلون جهدًا في إخفاء جثثهم بعد الانتحار؛ إنهم مهملون ويتركون جثثهم بأمخاخها المتفجرة أو شرايينها المقطوعة في أي مكان، كأن باقي البشر خدم لهم، ولا عجب فهم مغرورون أيضًا. إذن هل تصادف أن المدعو عصام الشرقاوي هو الكاتب الأكثر تحضرًا ونظامًا في السنوات الأخيرة؟

في الصفحات التالية سوف نقوم بعمل بطولي. نحاول أن نعرف سر اختفاء المدعو عصام الشرقاوي. هذا يقتضي أن نبحث كثيرًا جدًّا إلى أن نجد خيطًا، وربما لا نجد.



www.bqfp.com.qa

978-99921-95-74-1





صورة الغلاف: أحمد مراد

السنجة

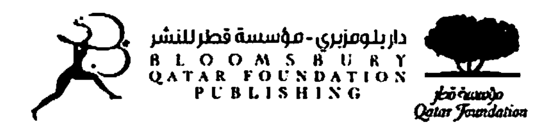
الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠١٢
الطبعة الثانية أكتوبر ٢٠١٢
الطبعة الثالثة نوفمبر ٢٠١٢
الطبعة الرابعة ديسمبر ٢٠١٢
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي: 9789992195741

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

أحمد خالد توفيق

السنجة



إهداء

كثيرة هي الأسماء التي يبتغي المرء أن يشكرها أو يهدي لها هذه الرواية، مع ذلك الشعور بالسخاء والصفح عن الكون الذي يغمر الكاتب لحظة انتهاء عمل جديد. لكنه عندما يحاول اقتناص عبارات الشكر يكتشف أن الكلمات قد تبخّر معظمها. فليغفر لي من لم تسعفني الذاكرة باسمه في هذه اللحظة، لكني مدين بشدة لصديقي العزيز والأديب الجميل أحمد العايدي على كل شيء في الواقع، وبصفة خاصة على جعلي أكمل كتابة هذه الرواية، وقد كان التوقف عنها ومحوها مغريًا بشدة في لحظات عديدة. قام أحمد كذلك بقراءة المخطوطة ومراجعتها، وله إضافات في غاية القوة. أشكر كذلك رفيقي عمري د. أيمن الجندي ود. رائف وصفي. الأول لم يبخل برأيه الصائب ومراجعته في أي وقت، والثاني منحني سنوات من عصف الأفكار وتبادل الآراء حتى صار يفهمني وأفهمه من دون أن نتكلم. أشكر كذلك الدينامو النشيط المجامل سيف سلماوي الذي كان هناك دائمًا ليشجعني

ويحمسني بابتسامته الهادئة المطمئنة. وفي النهاية أشكر ثورة يناير العظيمة التي أخبرتنا بالكثير عن أنفسنا بما فيها من خير وشر. وأزعم أن من رأى تلك الثورة قد اكتسب قرونًا من الخبرة يفوق بها من لم يرها.

تمهيد

ربما نحاول في الصفحات التالية فك طلاسم اختفاء المدعو عصام الشرقاوي منذ شهرين. الشرطة لم تستطع تبين شيء، وبدا واضحًا بعد سلسلة التحريات الروتينية أنها لن تجد شيئًا، وأنَّ الاختفاء سيدخل ملفًّا في أرشيف مُترب عشَّشت فيه العناكب، مع عبارة تقول «جار البحث والتحرِّي» يكتبها معاون المباحث وهو يتثاءب.

بعد سلسلة الأسئلة المعتادة عن أعدائه وخصومه ومنافسيه، تبيَّن أنه لا أحد يحبه لكن لا أحد يكرهه إلى درجة القتل. مُطلَّقته، إلهام أبو ياسين، أكَّدت أن العلاقات بينهما منقطعة منذ عامين ولا تعرف عنه شيئًا، وقد خمدت نيران القضايا بينهما، كما انتهت دواعي الخلاف. هناك مشاكل على قطعة أرض صغيرة يملكها في قريته، لكنها ليست من الطراز الذي يؤدي إلى القتل والدفن في الريَّاح.

كان المختفي أو الفقيد روائيًّا. أي أنه كان يكتب قِصصًا، ويقال إنه على درجة من الشهرة، لكن الحقيقة أنه لا أحد يعرفه على الإطلاق،

ولم يقرأ له أحد حرفًا من قبل. أي أنه هو نفسه مصدر معلومة أنه أديب شهير نوعًا. الأدباء يتحرون دائمًا في النهاية. رجال التحريّات يعرفون هذا، لكنهم كذلك يعرفون أن الأدباء لا يبذلون جهدًا في إخفاء جثثهم بعد الانتحار؛ إنهم مهملون ويتركون جثثهم بأمخاخها المتفجرة أو شرايينها المقطوعة في أي مكان، كأن باقي البشر خدمٌ لهم، ولا عجب فهم مغرورون أيضًا. إذن هل تصادف أن المدعو عصام الشرقاوي هو الكاتب الأكثر تحضرًا ونظامًا في السنوات الأخيرة؟

إن هذا الاختفاء لغزٌ، لكنه لا يهم أحدًا على الإطلاق، مثله كمثل السبب الغامض الذي يجعل القط يحك خلف أذنه عند اقتراب الأمطار. هناك سبب قوي لكن لا أحد يبالي بأن يعرفه ولن يفتش عنه مخلوق.

في الصفحات التالية سوف نقوم بعمل بطولي. نحاول أن نعرف سر اختفاء المدعو عصام الشرقاوي. هذا يقتضي أن نبحث كثيرًا جدًّا إلى أن نجد خيطًا.

وربما لا نجد.

١

لا يجسر المرء على أن يمضي وحيدًا في «دحديرة الشناوي» بعد المغرب؛ فالمكان ظل وسيظل إلى الأبد فوق القانون أو تحته.. لا أدري بالضبط. كان وسيظل متمردًا على أي نظام، خارجًا على سطوة الحكومة، وهناك قصة لا يدري أحد مصدرها عن أن سكان الدحديرة هم الذين قاموا بالقبض على الضابط وقوة الشرطة التي كانت معه وأوسعوهم ضربًا. ويقال إن حماصة بالذَّات هو من نزع حذاءي الضابط ثم ضربه علقة ساخنة على بطن قدميه. الناس لا تعرف مصدر هذه القصص، ولا إن كانت حقيقية، لكنهم بالتأكيد يحبونها ويصغون إليها في طرب وانتشاء يشبهان ما يشعر به الريفيون عند سماع السيرة الهلالية. وكأنما حماصة ذاته يعرف الهالة الأسطورية المحيطة به، فلم يظهر للعيان منذ أعوام، ومع مُضي الزمن تضخم وبدا أكبر من الواقع.

يمكنك إذا مضيت هناك صباحًا أن ترى الجدار المهدَّم المثقوب الذي تسنده أكوام القمامة الموضوعة بإستراتيجية بارعة، والتي تتعالى

يومًا بعد يوم، إلى أن يقرر الصبية أن يحرقوا بعضها ليصنعوا ثغرة. يمكنك أن ترى البيوت العشوائية الضيقة المبنية من طابق واحد، فهي أقرب إلى عشش الإيواء، أو هي كذلك. ويمكنك كذلك أن تدرك أن هذه الأُسر لا أسرار لديها على الإطلاق، حياتها كلها تُمارَس من خلال الباب المفتوح على مصراعيه، فإذا انغلق الباب بمعجزة ما ليلًا دخلنا في فصل جديد يتم بالكامل أمام عيون الأطفال المتظاهرين بالنوم.

أمام هذه الجدران كئيبة المنظر، حيث رائحة البول والفضلات البشرية الجافة مختلطة برائحة المازوت، أمام هذه الجدران تمتد مساحة شاسعة، تعبرها قضبان القطارات. نحن في الواقع على مشارف محطة القطار، وهذا يفسر الرائحة ويفسر الهدير الذي يهز المكان هزًّا كلما مرت عشر دقائق.

عندما يعبر القطار لا يبالي به أحد.. ديناصور منسي فقد هيبته فلم يعد يخيف الأطفال أنفسهم.. الناس فقدوا احترامهم لهذا الشيء، وفقدوا تهيبهم له، لهذا يلعب الصبية الكُرة وتعبر الفتيات الطريق بلا وجل، بينما هذا الجدار الحديدي يهز المكان هزًّا. ثمة رجل يفرغ مثانته جوار جدار، فلا يكلف خاطره بأن ينظر إلى الخلف بينما القطار يمر على مسافة نصف متر منه.. فقط يهز نفسه ليبرأ من بوله ثم يغلق زمام سرواله ويعود إلى شأنه.

جوار الجدار ثمة بائع فول يقف في سيطرة وفخر جوار عربته بينما الرجال يلتهمون الفول في أطباقه المعدنية، وقد بدت على وجوههم

علامات أهمية وخطورة لا مبرر لها.. لماذا يشعر المرء بفخر وغرور لأنه يلتهم الفول بشهية؟ لغزٌ لم يستطع عصام الشرقاوي أن يحله قطٌّ، لكنه موجود.

إن عصام هناك كالعادة.

يقف عند عربة الفول ذاتها، وقد نفخ شدقيه بالطعام كعادة هؤلاء القوم.. ضع كل شيء في فمك قبل ابتلاعه كأنك تخشى أن يؤخذ من يدك. كان قد تعلَّم منذ زمن أن يترك ذقنه نامية، وأن يحكها من وقت إلى آخر ليوحي بأنه مصاب بمرض جلدي ما.. تعلَّم أن يلبس القميص القديم الذي ينقصه زران.. أن ينتعل الحذاء الممزق.. أن يلبس البنطال الرمادي الذي فيه بقعة زيت واضحة. إنه يقترب من الستين لكن لا يمكنك أن تلاحظ هذا أبدًا، فهو من النوع الذي لا يعكس السن.. سوف تفترض أن سنه خمسة وأربعون أو خمسون عامًا لا أكثر.

كان يعرف الحقيقة.. أنت لست أنيقًا أو مهيبًا بحيث يسمح لك رجال الأمن على باب ذلك الفندق أو ذاك بالدخول.. لا تبدو عليك علامات النعمة أو الثراء، لكنك في الآن ذاته تبدو رقيعًا ثريًّا جدًّا عندما تمشي في «دحديرة الشناوي».. يرمقونك بعدائية واضحة.. ربما بشيء من السخرية.. مئات الأسئلة الفضولية في الأذهان، والنسوة الشرسات الضخمات الجالسات على عتبات عششهن يتوقفن عن تنقية الأرز أو العدس أو نزع ريش الدجاجة عندما تمر، ويتبادلن الهمسات.. أم بلبل وأم شوقي وأم هند وأم صفوت...

ضحكة رقيعة رفيعة تدوي من فتاة في سن المراهقة تدل على أن تعليقًا بذيئًا قد قيل.

غريب جدًّا أنت في هذا المكان.. الاحتمال الأكبر بالنسبة إليهم هو أنك «حكومة».. والحكومة لديها الكثير مما تفعله هنا، لكنها لا تجرؤ.. شخص غريب غامض لا يعرفون عنه شيئًا، لذا يمكن أن يكون أي شيء... أي شيء لا يرحبون به.

المقهى..

يمكنك فهم كل شيء في المقهى.. هنا روح المجتمع المصري وقلبه النابض.

البناء نفسه ضيِّق متداعٍ، مع جدران دُهنت يومًا ما بلون أخضر جيري فستقي لعين، غطَّاه الهباب والعطن، وتشقق في أكثر من موضع.. لا مكان بالداخل سوى للنَّصبة والنار وحوض الماء وبعض أكواب مهشمة. أما المجلس الحقيقي فخارج المكان، في الهواء الطلق بين صفائح السمن الصدئة القديمة التي زُرع فيها الصبار والياسمين، والمقاعد المنجدة بالخوص التي لا تثبت أبدًا على أقدامها الأربع.

هناك يجلس الصنايعية والعاطلون يدخنون المعسل قبل بدء اليوم، وهناك تدور صفقات البرشام خِلسة وعلانية. لو وجدت مجلسًا لا يتم فيه لف البانجو فأنت محظوظ.. لأسباب تتعلَّق بالفقر يستعملون البذر نفسه مع الرايش.. لا يتخلصون منه، لهذا صار الصداع طبيعة حياة

هنا. شتائم بذيئة وبصقات.. صوت ارتطام حجر الدومينو العدواني بالرُّقعة.. هناك من صحا من نومه شاعرًا بالتظرف، ربما بسبب قطعة الحشيش التي أفناها ليلًا، أو بسبب ليلة حافلة مع امرأته، لذا أنزل الطاقية على مقدمة رأسه بين الحاجبين، وراح يقول أشياء يحسبها مضحكة جدًّا وهو يفتح قطع الدومينو الخاصة به:

ـ بِيقولَّك فريد الأطرش لسه أطرش.

يمطُّ الكلام مطًّا على سبيل التظرف.. لا يضحك أحد.. هو نفسه لا يضحك.. لكنه يعرف أنه ظريف..

فيسبه الآخر:

ـ العب يا ابن الـ....

وترتطم قطعة أخرى...

وهنا يشعرون بك.

فجأة يتوقف الكلام وتبدأ النظرات.. كلهم ينظرون إليك كأنك أغرب شيء في العالم. تحك أذنك فتسمع أفكارهم تدوي: إنه يحك أذنه! ترشف رشفة من الشاي فتصرخ خواطرهم: يرشف الشاي أيضًا!

يصل القهوجي فينظر إليك نظرة عدائية متسائلة.. لو كان يملك الحق في طردك والبصق عليك لفعل، لكنك للأسف لم تفعل ما يضايقه.

يصل كوب القهوة المبتل بالماء، ومعه كوب الماء الذي امتلأ

بالبصمات ومواضع الشفاه السابقة.. لن تطلب حجرًا هذه المرة لأنك تدخن بعصبية، والعصبية تجعلك تسعل، والسعال يجعلك غريبًا.

حتى الابتسام لا يظفر برحمتهم.. حتى البقشيش الذي تتركه للقهوجي بعد كوب القهوة لا يشفع لك.. يأخذ المال ويحتفظ بعدوانيته.

فقط لو أنك صرت خفيًّا..

لو أنك قادر على مراقبتهم وسماع كلامهم من دون أن يشعروا بك..

يومًا.. يومين.. ثلاثة أيام.. ثم قررت أن تحاول أن تبدو مثلهم.. ربما يقلل هذا من العدائية بعض الشيء.. هكذا تعلمت أن تبدو رثًّا.. تعلمت أن تبدو عاطلًا أو بلا هدف في الحياة.

غريب أنت في هذا المكان.. لكن عليك أن تندمج.. عليك أن تفهم.

فقط عليك أن تخرق حاجز الجليد، وأن تنطق العبارة الأولى.. العبارة الأولى! ما أصعبها وأعقدها! العبارة التي ستجعلك منهم أو بينهم أو معهم.. أين أنت يا شكسبير عندما نحتاج إليك؟

ما هي العبارة الأولى؟

هل تكون عن الحكومة، أم عن الغلاء، أم عن القيظ، أم عن الغبار، أم عن النساء، أم عن الحشيش، أم عن القطارات، أم عن الصحف،

أم عن الدين، أم عن المحاكمات في الصحف، أم عن الديون، أم عن المساكن والإيجارات، أم عن أسعار اللحوم، أم عن البيرة، أم عن التطرف، أم عن الأقباط، أم عن الأحزاب، أم عن الفياجرا، أم عن البنزين، أم عن...؟

في كل مرة يبدو الكلام في غير موضعه، ويرى نفسه كما سيبدو بالضبط لو فتح فاه: غريبًا.. مريبًا.. كئيبًا.

لذا كان يدخن السجائر في صمت.. يشرب الشاي في صمت.. يلتهم الفول في صمت.. يراقب الناس في صمت.. يصمت في صمت.

يدعو الله أن تأتي الخطوة الأولى من أحدهم.. فقط لو أن أحدهم يجلس جواره في المقهى ثم يبدأ في الثرثرة.. لشد ما سيكون هذا رائعًا.



عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ كل ليلة عندما تغرب الشمس، وعندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك، وعندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

لم يعتد الشقة بعد، وما زال يضل الطريق فيها.. شعور غامض بأن المطبخ هنالك إلى يمين الحمَّام والتلفزيون في الصالة إلى جوار

الثلاجة.. خطأ.. لا يوجد تلفزيون، والثلاجة صغيرة جدًا بارتفاع المنضدة، والمطبخ لا وجود له.. استبدلوا به قطعة الرخام تلك الشبيهة بشرفة تطل منها على الصالة. من هناك يمكنك أن تطهو الطعام وتضعه على قطعة الرخام مباشرة فيصير ضمن ملكوت الصالة. المشكلة الأخرى هي أنه لا يوجد موقد. حيث كان يجب أن يكون الموقد، هناك جبل من أوراق الصحف الملوثة بالزيت والأكياس البلاستيكية التي تفوح منها رائحة دجاج عطن أو سمك عطن أو فول عطن.. عشرات الخطايا البيولوجية التي تؤكد لك أنك بشر وأنك كنت حيًا تأكل.

هناك سبرتاية صغيرة تعد عليها الشاي، وجوارها زجاجة ماء تملؤها في بداية اليوم وتأخذ منها ما تريد، لأن الماء لا يتدفق من الصنابير إلا ساعتين بعد منتصف الليل.

هواء البحر يهب عنيفًا فينفتح باب الشرفة.. وللحظة يحلق كل شيء في الهواء.. تتجه للباب كي تغلقه وهو يصارعك بلا توقف.. تلقي نظرة على البلدة الصغيرة الحزينة كاسفة البال التي تتأهب للنوم.. مثقلة بالأحزان.. لن يكون نومها بلا كوابيس.

مدينة أشباح.. لا أحد يتحرك على مرمى البصر سوى ذلك البواب الصعيدي الذي يركب دراجته.

كلب يعوي من بعيد.. كلاب السجن انتشرت في الفناء لمنعك من الفرار.

هذا ليس بوابًا.. بالتأكيد يضع بندقية على الدراجة، ولو رآك لصوَّب نحوك وصاح منذرًا بالألمانية: «آختونج! هالت!».

ثم ينطلق سيل من الرصاص ليمزقك.. لا أحد يفلت من معتقل «أوشفيتز» يا فتى.. لا أحد.

ترشف رشفة من كوب الشاي الذي أعددته.. رائحة الكحول التي أدمنتها تفوح من الشاي.. شاي السبرتاية وشاي الفحم.. فقط.. تفتح الكراس وتعيد تأمل آخر فقرات كتبتها.

ليلى ومظاهرات الطلبة في السبعينيات.. مجلات الحائط.. الأمن.. هذا هو ما تريد أن تكتب عنه.. هذا هو ما تعرفه.. لكن الجميع يكتبون عن نفس الأشياء. لديك في المكتبة عشر روايات تدور في ذلك العالم، وبالتأكيد كلها أفضل.. كل طالب كان في مظاهرات السبعينيات صار اليوم أديبًا.

في كل يوم تتأكد الكارثة أكثر.. أنت عاجز عن استيلاد أفكار.. أنت ناضب عنين.. أنت تتقمص حالة الأديب المنهمك برواية عظيمة.. تتصرف مثله.. تبدو مثله... تفكر مثله.. تتألم مثله.. لكن الحقيقة هي أنك لن تلد أبدًا.. لم يعد لديك رحم.

والأدهى هو أنك لا تقبل هذه الحقيقة.

ناضب كبئر منسية منذ قرون.

فشل زواجك.

ماتت قصة حبك.

جفت قريحتك.

تركت وظيفتك.

تبخرت مدخراتك.

شاب شعرك.

الرفاق يعزونك على وفاتك الأليمة.

لكنك ما زلت طفلًا يأبى الاعتراف بأنها النهاية.

«سوف أندمج بين الناس أكثر.. سأصغي لهم أكثر.. «دحديرة الشناوي» ستقدم لي الجواب، وإن لم تفعل فاللعنة عليَّ وعلى الأرض التي أمشي عليها وعلى كل شيء...».

٢

هناك يلتف الطاعمون حول أطباق الفول المعدنية الصغيرة.. هناك بصلة يدشها الواحد منهم ثم يفرك رغيفي الخبز فركًا بعضهما مع بعض فيتساقط شلّال من الردة.. بينما عبد الغني نفسه ـ صاحب العربة ـ يظهر الاحتراف فيصب الزيت من عدة زجاجات بسرعة كأنه حاوٍ، وكذا خلطة التوابل والكمون.. ويرص البيض المسلوق رصًا. إن الوقت مبكر نسبيًا، لكن معظم الواقفين سوف يجعلون من هذه الوجبة إفطارًا وغداءً معًا.

فس س س س!

فيما بعد قال مصطفى المزين إنه نظر إلى قضيب القطار.. هذا هو الوقت الذي يعبر فيه قطار الحادية عشرة.. لقد جاء متأخرًا.

القضبان ترتج.. الأرض ترتج.

ذلك الجو العام من التوتر الاستاتيكي الذي يصاحب وصول القطار دومًا، لكن هؤلاء القوم فقدوا اهتمامهم بالقطارات.. لم يعد

أحد يلاحظ ولم يعد أحد على استعداد للتوقف عن المضغ لحظة تحيةً للديناصور الحديدي القادم من بعيد.

كلٌّ منهم كان مثقلًا بالمشاكل، ذاهبًا ليرمي نفسه في بحرها.. فقط هو يكره أن يفعل ذلك ببطن خاوٍ من الفول. ربع ساعة لن يضر أحدًا على كل حال. ثم إن هذه اللحظات الخافتة كانت لونًا من الترف الصباحي، وإن كان أقل بكثير من ترف المضاجعة الليلية للمتزوجين منهم.. كلها أشياء تُنسيهم للحظات جبل الهمِّ الذي ينتظرهم.

فيما بعد، قال إبراهيم أبو غصيبة إنه لم يرَ المشهد أولًا. لعله كان في فيلا الساحل الشمالي وقتها.

قال جمال الفقي إنه رأى كل شيء بوضوح، ويمكن أن يشهد في أي محضر.. لا يمكن أن يفوته مشهد فتاة تتمزق.

عباس الدلجموني قال إنه لم يرَ شيئًا.. بالطبع كان يتحاشى المشاكل مع رجال الشرطة.. لو طلبت منه أن يشهد أن الشمس تشرق في الصباح لأحجم وتهرب منك.

أم بلبل التي كانت خارج عشتها تسكب بعض الماء القذر رأت المشهد منذ البداية.. وكان ابنها بلبل نائمًا بالداخل غارقًا في تأثير المخدرات.

علاء أبو فرحة كان يتبوَّل وسمع الصوت.. ولسبب ما تذكَّر أباه.

أما عن عصام الذي وقف معهم يتظاهر بأنه منهم، وقد ملأ شدقيه بالفول بدوره، فقد تجاوز المشهد قدراته على الاستيعاب.. للحواس

درجة معينة من «الفولت» بعدها تحترق أو تعجز عن الاستيعاب، ولرُبَّ صرخة عالية جدًّا لدرجة أنه لا أحد يسمعها.

هناك لدى الغربيين لعبة اسمها «الهاتف الصيني».. في هذه اللعبة يحكي اللاعب الأول قصة مُعينة همسًا، ثم يطلب من اللاعب الثاني أن يحكيها همسًا للّاعب الثالث، وهكذا.. فاللاعب الرابع.. السادس.. العاشر.. في النهاية يحكي اللاعب الأخير القصة بصوت عالٍ، فيصدم الجميع لأنها تكون قصة مختلفة تمامًا.

هذا هو ما حدث هنا بالضبط.. القصة تتبدل يومًا بعد يوم، وقد اكتشف هشام بيه المحقق أنها تتغير طيلة اليوم.. تتغير في الصباح.. تتغير قبل الغداء.. تتغير ساعة الغروب.. تتغير بعد صلاة العشاء.. تتغير.. هذه القصة لها حياة خاصة بها.. إنها كالشلال يتبدّل بين لحظة وأخرى.

ما استطاع أن يعرفه، وما استطاع عصام أن يقوله، هو أن الجميع شعروا بحافز قوي يدفعهم للنظر إلى الجدار البعيد.

جدار مصنع الحلوى القديم، كما يعرف الجميع، والذي رسم الأطفال عليه أشكالًا مبهمة بلون أسود، كما أن هناك إعلانات يستحيل أن تقرأ حرفًا منها، وعبارة تقول: «لم ننساك أبدن يا سادت يا بطل الحرب وسلام». كتبها شخص لم يعرف أن «لم» تجزم الفعل المضارع، وأن «أبدًا» لا تُكتب «أبدن»...إلخ. وعبارة تقول: «الجيش والشعب إيد واحدة». مع علم مصر، ثم قام أحدهم بشطبها بالفرشاة الحمراء.

هذا الجدار هو الذي توقفت عنده عفاف.

فيما بعد، عرف الجميع أن اسمها عفاف، أما بالنسبة إلى معظم من رأى الحادث في ذلك اليوم فهي «فتاة القضبان». لا يذكر أحد تفاصيل مظهرها.. نفس المعالم التي ترى المئات منها كل يوم.. تعرف أنها فارعة، وأنها تلبس الحجاب، وأن ثيابها رخيصة، وأن جسمها بديع.. هذا كل شيء.

أول ما رأوه هو أنها توقفت أمام الجدار.. ظلت تنظر إليه للحظات، ثم أخرجت من كيس بلاستيكي علبة «سبراي» أسود ورجتها بعصبية، وراحت تحاول جاهدة أن تخط كلمة بخط عملاق مشوش... هذه ليست بالطرق المعروفة في مصر، وهي تذكرك نوعًا بفناني الجرافيتي في الخارج. لا شك أن ثمن علبة «السبراي» هذه يُمثل دخل يوم كامل لها. لكنها فعلت ذلك على كل حال، ولربما كان هذا هو ما جعل القوم يشعرون بشيء غريب.. حتى من لم يكن ينظر، شعر بذلك الحافز الذي يجعله يلتفت.

يدها ثابتة مصممة.. تتوقف لحظة ثم ترج العلبة وتواصل الكتابة.

فس س س س!

في النهاية تتراجع بضع خطوات.. تلقي نظرة على المشهد كأنها فنان يتأمل لوحته. ثم بكل ثبات تطوح علبة «السبراي» بعيدًا.. تصرف آخر عجيب.

هنا سمع الجميع القطار.

قطار الحادية عشرة صباحًا الذي يرج المنطقة كلها رجًّا.. وهذا كما قلت حدث معتاد ولا يثير أي تهيب.. حتى الصبية لا يوقفون لهوهم على القضبان.

لهذا عادوا يمارسون ما كانوا يقومون به.

يلتفون حول أطباق الفول، وأم بلبل تسكب الماء القذر، وعلاء أبو فرحة يتبول، وعباس الدلجموني لا يرى المشهد...إلخ.

ثم لاحظ الجميع أن الصفارة استطالت وتمددت.. بدا كأنها تأتي من قبل خلق الكون ذاته وتتوغل حتى الأبدية.. نظروا في دهشة ليفهموا.

كانت الفتاة تعبر قضبان القطار في تؤدة وثبات وبلا أي نية للاستعجال. كأنها تمشي في مرج تقطف الأزهار. وقد بدا أنها لا تعبأ نهائيًّا بصوت الصفارة الذي يعوي منذرًا.. يتوسل إليها.

لا تعبأ بأنها على ذات القضيب... لا تلاحظ القطار أصلًا...

ومن النافذة الجانبية أطل عم أحمد شرارة وراح يضرب الصفارة مرارًا... لقد فات أوان الفرملة. خطر له أنها شاردة الذهن، ثم قدر أن هذا مستحيل.. خطر له أنها صماء، لكن الأصم لا يعبر القضبان من دون أن يلتفت.. وفي النهاية وصل إلى الإجابة الرهيبة: هذه الفتاة تنتحر... وهي إجابة ليست صادمة، لأن كل سائق قطار يمر بهذا الموقف مرتين في العام على الأقل.. إذن اليوم هو اليوم. ومعي أنا! يخرب بيتك!

عفاف تعبر القضيب.

عفاف لا تنظر.

عفاف لا تصغي.

عفاف غير متعجلة على الإطلاق.

عفاف تحتقر القطار.

أما ما حدث بعد ذلك فهو مشهد غير واضح. لقد تم كل شيء بسرعة، بحيث لم يتبين أحد شيئًا. لا تتوقع أن الفتاة رفعت كفها لوجهها وصرخت.. ثم صرخ سائق القطار.. ثم اقتربت مقدمة القطار.. وتناثر الدم في كل مكان... وعلى القضيب سقطت ذراع.. هكذا نتخيل المشهد، وهذا بالضبط هو ما لا يحدث.

لا شيء من هذا كله. لقد كانت الفتاة هناك ثم لم تعد.. هذا كل شيء. وبصعوبة اقتنع من رأوا المشهد بأنهم لم يكونوا يحلمون أو أن الفتاة كانت موجودة فعلًا.

وبعد مائتي متر استطاعت فرامل القطار الجبارة أن توقف الديناصور الحديدي، وتصاعد صوت الصرير.

علا صوت بكاء عم أحمد شرارة وهو يتخيل عدد أيام الخصم الذي سيتم معه، وكل التحقيقات القادمة.

رائحة الجازولين والصدأ في كل مكان.. رائحة الموت.

الغبار يتصاعد.. لا تعرف من أين.

عشرات الأشخاص هرعوا من كل صوب نحو مكان الحادث، وأطلقت أم بلبل صرخة ثم بدأت تولول، ولم تنسَ أن تتخلص من الماء القذر أولًا. علاء أبو فرحة أنهى آخر القطرات من البول ثم هرع يرى ما هنالك من دون أن يغلق زمامه.

أما عصام فقد راحت ساقه ترتجف بلا توقف.. ترفض أن تثبت للحظة. كأنها تحوَّلت إلى هلام رخو فجأة، وشعر بأن قلبه غاص في قدميه. الضوضاء والصراخ.

راح يزحف.. يزحف حتى بلغ الجدار المتداعي.. وانحنى.. شعر بالحمض يحتشد في معدته ثم يصعد إلى فمه، فانحنى وأفرغ ما التهمه مع أشياء أخرى لا يعرف ما هي. لم يكن ممن يقيئون عندما يتوترون، لكن هذا وقت مناسب كي يصير منهم.. من الواضح أنه يجهل أشياء كثيرة عن نفسه.

أوووووع!

ألصق جبهته بالجدار.. جبهته الممتزجة بالعرق والتي التصقت بها حبيبات الأسمنت. توقفي يا ساقي.. أرجوكِ.

نظر إلى الخلف فرأى الناس محتشدين، ومن مكان ما برزت أوراق الصحف.. لا بد من أوراق الصحف.. لا بد من جمع الأشلاء في ورق الجرائد. كيف استطاعوا جمعها؟ لا بد أن هذا استغرق جهدًا جبارًا.

لم يرد أن ينظر.. فقط اجتاز صفًّا من الصبية يركضون فوق القضبان

وقد انتابهم جذل عظيم.. بدا له أن حالة من النشوة والسعادة تغمر الجميع.. لقد ماتت الفتاة كي تجعل حياة هؤلاء القوم أمتع، لكنه لا يستطيع أن يشاركهم المرح.

إنه خائف.. لا.. لم تعد لديه أعصاب لتشعر بالخوف، بل هو في حالة انعدام وزن ربما تمر وربما لا.

لم يكن قد رأى الموت عن قرب من قبل، وحتى عندما مات أبوه لم يرَ المشهد وإنما جاء ليجده قد انتهى.. هو لم يرَ موت الفتاة فعلًا، لكنه رأى الموت يعمل من بعيد.

شعر به.. سمعه.. شمه.

أوووووع!

يفرغ معدته من جديد.. هذه المرة لا شيء سوى الحمض هنالك. لكنه يشعر براحة أكيدة.

من أنتِ؟ لماذا فعلتِ ذلك؟ كيف جرؤتِ؟

* * *

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.

كان قد وجد النقطة الهشة التي يبدأ الاختراق عندها.. من هنا يمكنه أن يخترق عالم الدحديرة الصلب.. سوف يتكلم الناس كثيرًا.. سوف يضعون أيديهم على كتفه ويتكلمون.. الجارات لن يتحمَّلن الصمت أكثر، ولسوف يبدأن الثرثرة.. الرجال على المقهى لن يصمتوا.. الأطفال الحفاة سوف يحكون كل شيء شاعرين بالأهمية.

في السبعينيات.. مظاهرات الخبز.. عندما جلسوا في الشمس صامتين، مالت تلك الطالبة الحسناء عليه وبدأت تتكلم وتتكلم في حرارة.. لم يعرف ما تقول.. قالت اسمها فلم يسمعه.. ذكرت كليتها فلم يتبينها.. كان يشعر بطرب شديد لأنها لا تشعر بأنه غريب عنها أو أنه ذكر.. فجأة ذابت الجدران كلها.

كان يتوق بشدة إلى تلك اللحظات هنا.. سوف يميل الناس رؤوسهم ويكلمونه.. سوف يحكون له كل شيء عن عفاف.

هكذا كان يفكر وهو يرمق الدخان يتلوى في ظلام الحجرة.. كأنه لون أبيض ينتشر في بركة ماء أسود.. ومن بين ذرات الدخان يرى وجهًا.. ليس وجه عفاف على كل حال.

إلهام أبو ياسين... مطلقته.. هذه المرأة كانت له، وكانت تنام بجواره يومًا بعد يوم، وكان ذلك الوريد في عنقها ينبض لحظة الانتشاء، ثم تتأوه في رضا وتجلس في الفراش لحظات تلهث، ثم تذهب إلى الحمَّام وتعود كقطة هانئة لتنام في حضنه. فجأة لم تعد له. أليس هذا عجيبًا؟ لماذا انفصلا؟ لا يذكر.. راح يعد الاحتمالات على أنامله:

ربما لأنها امرأة سيئة.

ربما لأنه رجل سيئ.

ربما لأنه لا ينجب.

ربما لأنها لا تنجب.

ربما لأن كليهما لا ينجب.

ربما لأنه يعبث مع فتيات رخيصات متدنيات المستوى.

ربما لأنه يعبث مع فتيات راقيات.

ربما لأنه كاتب.

ربما لأنه كاتب مغمور محدود الشهرة.

ربما لأنه يدس الورق المبروم في أذنه ليسلكها.

ربما هي رائحة جواربه أو البخر من فمها.

ربما لأنها مجنونة أو لأن أخاها بلطجي أو لأن أمها شريرة.

لا يعرف السبب.. مشروع شركة تم الاتفاق عليه ثم أجهض بسرعة البرق.. فقط يذكر أنها امتنعت عن تلبية نداء الفراش.. عامًا ثم عامًا ثم عامًا.. ثم فقد القدرة على العد.. وعندما بدا أنها قد توافق كان قد فقد رغبته فيها نهائيًا.. فقط يذكرها تقف في وسط الصالة متحدية كالنمر وقبضتها في خصرها:

ـ أعتقد أن علينا أن ننهي هذا الوهم.

- أي وهم؟

- الوهم الذي يرغمنا على الحياة معًا.

يا للحاجز اللعين! حاجز لا يمكن اختراقه أبدًا.. لا أحد فيكما يرغب في اختراقه.. لم يعد من حلٍّ سوى الطلاق.. هي لن تتغير وكذلك أنت.

هذه المرأة مجنونة تمامًا أو ضحية عمل شيطاني.. كل النساء يحاولن الحفاظ على بيوتهن إلا هي.. تتوق إلى جنازة تشبع فيها لطمًا، وتتوق إلى أن تدمر حياتها وحياتك.. ما مصلحة امرأة في أن تجعل زوجها ينفر منها ويكرهها؟

يقولون إنها رقيقة.. على باب البيت كانت إلهام تنزع شبشبها ورقتها ولطفها لتتحول إلى أشرس إنسان عرفه.. والكارثة هي أنها لا تحب رجلًا آخر.. لا يوجد أي دليل على ذلك، مما يدل على أنها مخبولة لا أكثر.. ربما لو كانت تحب رجلًا آخر لوجدت تفسيرًا عادلًا.. نفس الشعور الذي يغمرك عندما تمشي بسيارتك في طريق مختنق.. ساعة تمر عليك وسط الحر والغبار والعادم، وأنت تتوقع أن ترى سبب الاختناق في النهاية: حادث... لجنة.. سيارة معطلة. لكنك تعبر فلا تجد أي شيء.. لا يوجد سبب.. ساعتها تشعر بالحيرة والغبن.

إلهام قد أحالت حياتك جحيمًا.. فلم يعد أمامك من مفر إلا الكتابة والمزيد من الكتابة والكثير من الكتابة.

لقد صنعتك بنفس الطريقة التي تصنع بها الكلاب بطلًا في العدو.. بنفس الطريقة التي حوَّلت بها زوجة سقراط رجلها إلى فيلسوف.

«إن الله غاضب عليَّ جدًّا وأنت الدليل!».

هو بحاجة إلى أن يشعل لفافة تبغ أخرى، ويجلس ويحاول ترتيب أفكاره.. إن مشهد الفتاة التي تعبر قضيب القطار غير مبالية يحطم أعصابه كلما حاول النوم.

٢

لسبب مجهول قرر علاء أبو فرحة أن يفرغ مثانته جوار هذا الجدار بالذات.

الوقت عصرًا، والمنطقة هادئة، والحر يغري الناس بالقيلولة. يجب أن أخبرك بسرٍّ صغير.. كان علاء أبو فرحة مولعًا بالتبول فعلًا.. إفراغ المثانة كان يعطيه لذة تقترب كثيرًا من النشوة، وقد كان أبوه مصابًا بفشل كلوي، وكان يتردد على الجمعية الخيرية الإسلامية في الرياينة لعمل غسيل كلوي. لم يهتم علاء لشيء في مرض أبيه إلا عندما عرف أنه لا يتبول.. هنا غلبه البكاء الحارق.

علاء يعمل في معمل المخللات القريب.. وهو يشرب الكثير من البيرة ليلًا، لهذا يعتقد أنه يعرف السبب في كثرة تبوله.

علاء يحب إفراغ مثانته وهو ينظر إلى السماء أو وهو يصفر. ثم يرسم بخيط الماء أشكالًا تجريدية على الجدار.

هكذا وقف عند ذلك الجدار ـ جدار مصنع الحلوى ـ وراح شارد الذهن يصفر.

رأت عيناه عبارة كتبت بـ«سبراي» أسود.

هنا فقط تذكَّر.. الفتاة التي تحمل علبة «السبراي» وترش منها على الجدار ثم تتراجع لتحكم على ما هو مكتوب، ثم تتخلص من العلبة وتتجه إلى مصيرها.. لقد نسي الجميع هذه التفصيلة، وعلى الأرجح لم يذكرها أحد لرجال الشرطة.

كانت القراءة صعبة.

ليست الكتابة بـ«السبراي» أفضل خط يمكن قراءته، ولعل الفتاة نصف أمية كذلك، مما يزيد الأمور سوءًا.. لكنه استطاع أن يفك بعض الحروف:

السبحة

ما معنى هذا؟ المنتحرون لا يكتبون «السبحة» على الجدار قبل موتهم.. هذا على قدر علمه.

ربما هو لا يستطيع القراءة.. على كل حال كان قد أفرغ مثانته فعلًا ولم يعد هناك داعٍ للمزيد من التوقف هنا، ولم يكن شغوفًا بفهم ما يدور في رؤوس المنتحرين.

أغلق زمامه وتراجع ليلقي نظرة أخرى.. ثم بدأ يبتعد عائدًا إلى معمل المخللات.

* * *

على المقهى كان الموضوع المحبب هو انتحار الفتاة.. كان الجدل يدور حول الحادث، عندما جاء جمال الفقي حاملًا الغداء.. بضع شطائر من الكبدة والكفتة، ومعها كيس مليء بماء السلطة الحرَّاق وكيس مليء بالمخللات.. نظر إلى الرجال حوله وقال في عدوانية للا أحد:

ـ تعا كُل.

ومن الواضح تمامًا أنه سيمزق أول من يوافق.. ثم بدأ يلتهم الشطيرة وهو يؤكد للجالسين أنه يعرف كل شيء.. الفتاة تعمل في مشغل قريب، وقد نامت مع صاحب المشغل. المسكينة عرفت أنها حُبلى، وحاولت أن تجهض نفسها في المستوصف الخيري، لكنهم طردوها.. هكذا اتجهت إلى القضيب وتركت نفسها تسقط تحت القطار.

قال إبراهيم أبو غصيبة إنه يشك في هذا.. لم يبقَ من الفتاة ما يكفي لمعرفة إن كانت حُبلى أو لا.. لكن جمال الفقي قال وهو يفرغ ماء السلطة في كوب:

ـ إن ذلك العضو ظل سليمًا، وقد وجده رجال الشرطة على القضيب.

هنا ضحك اثنان ضحكة بذيئة من طراز «هع هع هع» إيَّاه.. واقترح أحدهما أن يهدياه إليه.

كان رأي مصطفى المزين أنه لا يمكن الحكم في هذا الوقت المبكر، إلا لو كانت الفتاة قد حكت لصديقاتها.

كان رأي عباس الدلجموني أن الفتاة كانت مسطولة وتحت تأثير

عقار ما.. لا بد أنها تعاطت بعض البرشام أو الحشيش.. لم تكن بحالة طبيعية وقد دفعت الثمن:

ـ كان لي ابن عم يحب الحشيش المغشوش.. وقد فر الجميع من الغُرزة عندما حدثت الكبسة، لكنه ظل جالسًا ينظر إلى الضابط في غباء وتحدٍّ.. وعندما صفعه الضابط راح يغني.

لكن الآخرين رأوا أنه أحمق.

هنا فقط قرر عصام أن يتكلم.. كان جالسًا إلى مائدة صغيرة معدنية وأمامه الشاي وكوب الماء المتسخ.. قال بصوت مبحوح يتحسَّس خطواته على عتبة الوجود:

ـ الفتاة أرادت الانتحار بإرادتها.. لا شك في هذا.

نظروا إليه نظرة طويلة.. لا تعليق من أي نوع.. ثم قال جمال الفقي وهو يملأ شدقيه بالطعام:

ـ مسكينة! لو عرفتُ مَن ابن الكلب صاحب المشغل هذا...

قال إبراهيم أبو غصيبة وهو يشد نفسًا عميقًا من الشيشة:

ـ هناك مَن يقول إنها كانت تذبح الدجاج في مجزر قريب.

ـ بل هي تعمل عند كوافير في شارع الحكمة.

ـ تعمل في محل طُرح في شارع النوساني.

ـ يبدو أن أمها كانت تريد لها أن تعمل في الدعارة.. وهي ترفض.

وتصاعدت سحابة الدخان.. بينما كان عصام قد عاد إلى قوقعته السابقة.. لقد خرج منها لكنه تلقَّى ركلة قاسية.. من الواضح أن الدحديرة لم تعطه رحمتها وصداقتها بعد.. من الواضح أنه سيعود إلى القوقعة. فليجرب غدًا أو بعد غد.

لما انتهى من الشاي دفع ثمنه مضاعفًا كالعادة، ثم خرج من المقهى.. قِط أجرب يطارده وهو يموء.. على الأقل هناك كائن واحد يريد صداقتي.

مشى نحو القضبان ووقف للحظة.

استدار للخلف، هنا فوجئ بحشد العيون الذي كان يراقبه من دون علمه.. أشعل لفافة تبغ وحاول أن يصمد أمام سيل النظرات الثاقبة.. النظرات الوقحة.. النظرات التي تجد لنفسها كل الحق في اختراق خصوصيته.

واصل المشي عبر القضبان.. رأى قطارًا قادمًا من بعيد، وقد شكَّل هذا مشكلة.. المساحة واسعة مترامية.. هو لا يعرف بالضبط أي قضيب سوف يختار هذا القطار، والمسافة بعيدة والقضبان متشابكة متنافرة.. لوحة سريالية مجنونة أو مكرونة بعثرها غلام. لكنه كره أن يتواثب عائدًا ويُبدي الذعر.. هؤلاء لا يستحقون كل هذا المرح.. سوف يثبت.

هكذا مشى بسرعة أكثر من المعتاد وهو يراقب الفلنكات، ويراقب أسلاك التحويلة.. هناك جزء متحرك يعرف من السينما أنه يغلق على كاحل الناس فيسقطون أرضًا أمام القطار.. لكنه لا يراه.

صفارة القطار الموحشة الكئيبة المولولة تتعالى.

لا بد أن سائقًا ما يلعن أمه الآن.. خصوصًا أنهم متوترون بعد الحادث.

ثم سمع القطار يمر من خلفه والأرض تهتز وترتج.. لقد أخطأه الموت كالعادة، والمهم أن الرجال لم يسخروا.

رائحة البول هذه.. لا يعرف أنه بول علاء أبو فرحة الممزوج بالبيرة والمخللات.

اتجه نحو الجدار الذي وقفت عنده الفتاة قبل موتها.. وقفت هناك بعض الوقت.. لماذا يقف الناس أمام جدار قبل موتهم؟ أن تقف وظهرك للجدار فهذا لأنك تنتظر الإعدام بالرصاص عندما ينتهي قرع الطبول.. أما أن تقف ووجهك للجدار فلماذا؟ ربما لتكتب بـ«السبراي»؟

موضوع «السبراي» هذا غريب حقًّا.. لا يتفق مع الفتاة ولا المكان ولا الزمن ولا التقاليد ولا الوضع الاجتماعي.. لا يتفق مع مصر.. عندما يدخل مبيض النحاس أو مكوجي الرجل إلى مكتبه ويشعل سيجارًا أخيرًا، ثم يتناول كأسًا من «السكوتش» ويكتب وصيته، ويدس فوهة المسدس في فمه ويطلق الرصاص. ألا يبدو هذا الخبر ملفقًا غريبًا؟

نظر حوله فرأى قِطًّا شرسًا يصدر عواء وهو يحوم حول قِط آخر.. الشعران منتصبان، والملامح ملامح عفريت يحلم.. سوف

يكون قتالًا شرسًا، لكنه لاحظ أن قتال هذه الحيوانات أقرب إلى التهديدات الجوفاء عامة.

أخرج قلمًا وورقة وراح يتأمل الكلمة التي كتبتها الفتاة بـ«السبراي» الأسود:

السنجة

ما معنى هذا؟

لماذا يكتب إنسان موشك على الانتحار لفظة «السنجة» على الجدار؟

حاول أن ينسخ الكلمة كما كتبت في مفكرته، ثم تراجع وهو لا يبعد عينه عن الجدار. على بُعد خطوات رأى علبة «السبراي».. العلبة التي سقطت من يدها بعد الكتابة. هذه بصمات ماتت صاحبتها بعد دقيقة.

شعر بحسد لها على الرغم من كل شيء؛ فهي قد اقتربت من السر الأعظم وفهمت الحقيقة.. هو ما زال واقفًا يتساءل.

راح يجر قدميه مبتعدًا، وهو يردد في سِره: «السنجة».. سوف تكون عفاف هي مفتاحه لفهم الدحديرة والنفاذ إلى أهلها.. وسوف تكون لفظة «السنجة» هي مفتاحه لفهم عفاف والرواية كلها.

لقد اقترب من الخلاص.

٤

عفاف تحب الكتاكيت الصغيرة.

الرغبة الجامحة في أن ترى هذه الكائنات الصفراء ذات الزغب تتخبط وتنقر وتجري ذات اليمين وذات اليسار.. هذه الرغبة كانت تثير جنونها.. كرات صفراء شقية وملكها. وعندما كانت أمها تعلن أنها ذاهبة إلى السوق كانت تلحق بها.. صحيح أنها كانت تمقت الوحل وروث البهائم والذباب.. بالذات الذباب الذي يتكاثر حول أحشاء السمك الذي تقوم أم بسمة بتنظيفه. دعك من الكلب الأشعث الذي كان يمد بوزه نحوها.. كانت أمها عالية بعيدة ولا ترى، بينما هي صغيرة قصيرة في نفس مستوى فم الكلب... فقط تصرخ فتشعر بيد أمها تهز يدها في ضجر.

كل هذا من أجل الكتاكيت...

وكانت تشق طريقها ممسكة بيد أمها وسط ممرات السوق الضيقة، تنظر إلى السلال التي تراصت فيها الطماطم وثمار الباذنجان.. تنظر

إلى السمك اللامع الندي الذي يحمل رائحة البحر، يحملق فيها بعيون ميتة من زجاج، ثم ترى الدجاج ينظر إليها من وراء ذلك القفص ومعه الأرانب الصغيرة.

هناك من يبيع الخبز المكسو بالذباب، وهناك رجل يبيع مشروب العرقسوس.. تستوقفه أمها وتناوله عملة ثم تأخذ كوبين.. تنفخ الرغوة بشفتيها من على الكوب الأول ثم تناوله للطفلة.. لم تكن عفاف تحب العرقسوس بتاتًا، وكانت تشعر بأن له مذاق التراب، كما أنه يجعل فكها يتقلص بسبب مذاقه القابض، لكنها لا تعترف بهذا لأن الكبار يحبونه بجنون.. ربما إلى درجة التقديس.. لهذا كانت تشربه في صمت..

ربما تبتاع لها أمها جيلاتي من ذلك الرجل الذي يركب دراجة ويدفع صندوقًا خشبيًّا تبرز منه قوالب الثلج. الرجل الذي يضع طرطورًا وينفخ في صفارة.. كان هذا أروع شيء يمكن للمال أن يشتريه.

في النهاية ترى الكتاكيت.. ربما تبتاع لها أمها واحدًا أو اثنين.

تعود إلى البيت مرهقة مغبرة، لكنها منتشية لأنها رأت الكتاكيت واقتنت بعضها.

إن البيت في حارة، وهي تحب اللعب هناك جدًّا.

في التاسعة من عمرها.. في السنة الثالثة الابتدائية.. لِعبية جدًّا، ومن الواضح أنه لا مستقبل لها في التعليم كما يعرف الجميع.. هي أكبر إخوتها.

تصعد إلى السطح حيث الشمس تكوي فضلات الدجاج فتنبعث رائحة مميزة مألوفة.. ليست رائحة كريهة جدًّا.. هناك شيء محبب فيها.. تمشي بين حبال الغسيل وتبحث عن القِط.. ثم تجلس هناك على حافة السور تراقب الحارة وتلتهم الحرنكش من قرطاس ورقي صغير.

أحيانًا تنظر إلى الطبق الصغير الذي ابتاعه أبوها. في فترة ما كانت حمى «الدِّش» في كل بيت، وكان كثيرون يعتقدون أنه الطريقة المثلى لمشاهدة أفلام عارية. كانت هذه هي تلك الحقبة، قبل أن يعرف أبوها الوصلة ويقوم بتركيبها. لقد أخبره أصدقاؤه بأن قناة «شو تايم» لا تقطع اللقطات العارية.. بعد ساعات قضاها أمام الجهاز أصابه الاكتئاب.. إن الحياة قاسية، ومن الواضح أنه لا توجد قناة في عالم الأحياء تسمح لك بمشاهدة «هوت بيرد» أو ممثلة واحدة عارية.. هكذا زهد العالم والفنون البصرية.

لم تكن تعرف هذا وهي ترمق الطبق الصغير الذي كلَّف أباها ثروة.

تنتهي من الحرنكش فتنزل إلى الشقة.

بدا لها الدرج رطبًا جدًّا ونديًّا بعد نزولها من السطح، دعك من أن الظلام صار دامسًا لا تستطيع أن ترى فيه أي شيء، والأسوأ هو تلك الشموس الملونة في كل مكان.

وقفت على باب المطبخ ترمق أمها وهي تضع الدجاجة في وعاء الطهي. رائحة الفلفل قوية.. عطست مرتين.

الأم تفتح درج الثلاجة ذات الباب الصدئ وتلقي نظرة:

ـ لا توجد طماطم يا عفاف.. اذهبي إلى السوق وهاتي لنا كيلو.

توترت عفاف لأنها لم تعتد شراء أشياء.. لكنها كبرت ومن الواضح أن مسؤولية السوق سوف تنتقل إليها بالتدريج.

الآن تتلقى التعليمات: لا بد من أن تسألي أكثر من بائع عن ثمن الكيلو.. لا تشتري من أول السوق بل توغلي بالداخل قليلًا لأن الأسعار أرخص.. لا تأخذي الكلام من فم البائع فلا بد من الفصال.. سوف يسألك إن كانت الطماطم للطهي أم للسلطة.. اكذبي وقولي إنها للسلطة وإلا خدعك وأعطاك كل الطماطم التالفة عنده بدعوى أنها تنضج أسرع.. لتكن حمراء خالية من الثقوب والتشوهات.. اعرفي السعر جيدًا...

هكذا غادرت عفاف الشقة وهي مفعمة بالمسؤولية والأسرار، وفي يدها الحقيبة المصنوعة من الليف المجدول، وهي تدل على مسؤولية عظيمة..

فس س س س!

* * *

كان عصام وحيدًا.

أقنع نفسه بأن هذا من حقه، وأنه يريد الانتقام بأي ثمن. وقف في الشرفة ينظر إلى المدينة الخالية التي جمَّد البرد كل شيء فيها حتى الخوف وحتى الخواء. تذكَّر دعابة أمريكية قديمة قرأها عن القطب

الشمالي.. عندما تثب في الهواء لن تقع.. لماذا؟ لأن قانون الجاذبية الأرضية نفسه متجمد!

الظلام يزحف.. وهناك عواء كلاب من بعيد.. صوت البحر لا يكف عن الهدير.

أعد لنفسه بعض الشاي على السبرتاية، وخطر له أنه يجب أن يشتري موقدًا غدًا.. يجب أن يحاول طهي بعض الطعام في البيت، لكن ليس الليلة بالتأكيد...

لقد حان الوقت.. حان وقت البحث.

نزل من البناية ومشى وحده في البرد.. يسمع صوت خطواته وعواء كلب من بعيد، فيرتجف متخيلًا ما يمكن أن يحدث لو رآه أمامه.. سوف يجري وسوف يجن جنون الكلب فيلحق به. إذن عليه ألا يجري.. لكن هذا مستحيل!

كان يعرف أنها تقف هناك قرب المطعم.. وحيدة شاردة تدخن لفافة تبغ، وتنتظر رجلًا لا يأتي.. في هذه المرة ستكون له ولن يندم لأنه ينتقم.. الليلة لن تكون هناك مبررات أخلاقية.. لقد تلاشت إلهام من حياته تمامًا، وكذا ماتت المخاوف الدينية منذ زمن، فلم يبقَ إلا هذا الخوف البرجوازي القديم: الخوف من الفضيحة.. الخوف من عيون الآخرين.. الخوف من أن تفعل شيئًا لا يليق بطبقتك.. الخوف من أن تفعل شيئًا لم ترَ أباك يفعله قطُّ... الخوف من أن تفعل شيئًا لا تستطيع الكلام عنه بحرية وأنت وسط أقاربك..

كانت تقف هناك وكان يعرف أن اسمها نوال...

مَن أخبره بهذا؟ لا أحد.. هو خمن ذلك وقال لنفسه إن من تُدعى نوال لا بد أن تبدو كذلك، أو من تبدو كذلك لا ينطبق عليها سوى اسم نوال.

دنا منها أكثر فاستطاع أن يرى وجهها على الضوء الأزرق القادم من مطعم «التيك أواي» الذي يشكو من ندرة الزبائن...

وجه مصري أسمر مليح.. لن تكسب لقب ملكة الجمال في أي مسابقة، لكنه وجه مريح مع ذلك. يعرف تلك الوجوه المثيرة جنسيًّا، لكنها في لحظات بعينها تبدو حيوانية أقرب إلى الغباء.. وهذا يجعلها مثيرة أكثر. لا بد أن طاقتي أنفها تختلجان وتتسعان عندما.........

سيئة التغذية، مذعورة كفأر.

رفعت عينيها نحوه وارتجفت.. ثم قالت الكلمة التي تكررها في كل مرة:

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

بيد مرتجفة أشعل سيجارتها.. في اللهب توهج وجهها.. تراقص... عيناها من العيون التي تبدو مكسوة بالدموع في وهج النار.

قال هامسًا إن شقته قريبة. أو قال شيئًا كهذا.

قالت في غير ثقة:

ـ آخذ مائة جنيه في المرَّة.

- خمسين.

هزَّت رأسها ولم تتردد كثيرًا.. قال لنفسه: يا بنت الواقعة!

أشار إليها كي تبقى حيث هي.. ركض إلى مطعم «التيك أواي» واشترى بعض الشطائر للعشاء مع علبتي مياه غازية. لماذا يصرون على تسمية العلبة الواحدة بصيغة الجمع «كانز»؟ سوف يعرف هذا فيما بعد، أما الآن فلا وقت للبحوث اللغوية.. إن قلبه يخفق كالطبل.. ستكون أول تجربة له بعد الطلاق.. الوحدة والحزن والرغبة في الانتقام... ربما يستطيع أن يغرق هذا كله في بحر الجنس.

وفي الشوارع الخالية مشيا.

لم تكن هناك من حاجة للمناورات.. ليس هنا أحد في هذا الفصل من العام، ككل المدن الساحلية في الشتاء.. مدينة أشباح... يمكنه أن يصعد بها إلى شقته وهو يتكلم بصوت عالٍ، ويضرب الأرض بقدميه ضربًا، ويعبث بالمفاتيح ويخطئ في المفتاح ويختار أكثر من واحد... لا مشكلة... وداعًا للّهفة واليد الراجفة والنظرات المذعورة من فوق كتفك. وداعًا لكابوس الجيران الغاضبين الذين يدقون الباب، والنزول بملاءة ملفوفة حول الجسد العاري وسط مخبري شرطة الآداب.

وعندما دخلتْ الشقة استطاع أن يراها في الضوء بوضوح لأول مرة.

لم تكن قبيحة.. ثيابها رخيصة شائعة الطراز وتناسبها.. لكنه رأى كعبي قدميها المتشققين وأصابعها المتسخة طويلة الأظفار

في الشبشب، ففقد بعضًا من حماسته.. قدم كهذه سوف تلوث الملاءات بشدة. كما أن شعرها الخشن جعل فكرة أخرى تخطر له: ماذا عن القمل؟

هنا شعر بجسده ينكمش تمامًا.. يمكنه جعلها تغسل قدميها، لكن هل يرغمها على غسل شعرها بـ«اللايسيد» كذلك؟

أحضر جريدة وفرشها على المنضدة ثم وضع المنضدة في منتصف الصالة. وبيد راجفة فتح اللفافة وأخرج الشطائر ووضعها أمامها.

ـ كُلي يا نوال.

نظرت إليه في حيرة وفتحت فمها لتقول بالتأكيد إن اسمها ليس نوال، لكنه أخرسها بإصبعه على فمه.

دست الشطيرة في فمها وراحت تأكل.. البقع البِيض على وجهها تدل على نقص غذائي.. وربما هي تشكو من الديدان كذلك. كانت جائعة جدًّا.. جائعة كديدان القز. وأدرك أنه سيترك لها نصيبه من الطعام.. قاسٍ جدًّا أن تدفع ثمن هذه الوجبة بجسدها، لكنه لا يعرف طريقة أخرى للحصول على جنس.. على الأقل هو لن يغتصبها.. إنها صفقة تمت برضاها.

في أثناء انهماكها تسلل إلى غرفة النوم فأخفى الحافظة وما معه من مال تحت حشية الفراش. لا يريد أن ينام فتسطو هي على كل شيء وترحل. القصة دومًا هكذا.

إن معي فتاة! لقد جلبتُ فتاة إلى البيت! لدينا الليل كله! لن ترحل

بعد الانتهاء، بل ستطلب أن يبقيها إلى الصباح. راح يردد هذا لنفسه ليتحمس، وراح يقنع نفسه بأنه حلوف شديد الفحولة.. سوف تنبهر الفتاة بقواه وأدائه برغم سنه.. فالحقيقة أن فكرة القمل قد أقلقته حقًّا...

* * *

عفاف الصغيرة كانت تجوب السوق بحثًا عن طماطم بسعر أرخص.

كانت تتلقى الدعوات من الجانبين، بينما هي تحاول الابتعاد عن بِرك الوحل وعن الكلاب الضالة، وتحرص على ألا تدهمها الدرَّاجات.

كانت هناك عربة كشري، وقد وقف البائع يقلب الكشري في أطباق معدنية صغيرة، مصرًّا على أن يقرع حافة الطبق بقوة بالملعقة.. يتحرك بسرعة فائقة ليوحي بالانهماك والاحتراف، بينما وقف بعض الآكلين يلتهمون الكشري بسرعة لا لزوم لها.. بدت لها الرائحة شهية فعلًا.

لكنها كانت تدرك المسؤولية على عاتقها وأنه ليس بوسعها أن تتباطأ.. أمها تنتظر.

كان هناك ذلك الرجل الغليظ البدين المشعر يرتدي جلبابًا متسخًا، ويقف خلف طاولة عليها أشكال وأحجام من الطماطم.. لاحظت أن لديه عينًا تالفة، وأن هناك جرحًا تحت عينه اليسرى. هناك كشك من

خلفه ومظلة عملاقة مثبتة بالحبال وكلب يغفو في الظل.. باختصار: كل لوازم بيع الطماطم.

ـ تعالي خذي طماطم يا شاطرة.

لم تكن تريد الشراء من هنا بالذات، وكادت تبتعد لكنه قال بإصرار:

ـ تعالي.. أنا أعرف ما تريدين.

حاولت الابتعاد، لكنه خرج من وراء الطاولة وأمسك بالحقيبة ذات الليف المجدول.. يبدو أن نظرةَ الباحثين عن طماطم مميزةٌ، ويبدو أنها مرسومة على وجهها.. في مكان ما من العالم أمة من المتلهفين على الطماطم.. وكلهم ينظرون ذات النظرة.

ـ هل تريدينها للطهي أم للسلطة؟

ـ للسلطة.

ـ طيب.

وحمل الحقيبة ودار حول الطاولة ليتجه إلى الكشك الخشبي:

ـ تعالي لتأخذي ما تريدين.

متوجسة اتجهت إلى حيث طلب منها وهي تشعر بأن هناك شيئًا خطأ.. عصام رأى المشهد حيث وقف على بعد أمتار، وقد قدَّر أن شيئًا شنيعًا يحدث، لكن خياله لم يبلغ هذه الدرجة، كما أنه لم يعرف ما يفعله بالضبط.

كان الكشك مظلمًا قذرًا، وثمة قطة راقدة تنظر إليها في شك.

قبل أن تخرج كان هو قد سد الكشك بجسده الضخم.. لم تفهم إلا أنه قبلها في شفتيها بنهم حتى أوشك أن يعضهما، وشمت رائحة أنفاسه الكريهة ولعابه.

ثم شعرت بتلك اليد الغليظة تمتد إلى صدرها الذي ما زال مسطحًا كالرخام وتعبث هنا وهناك.

استغرق هذا التعذيب نصف دقيقة، لكنها شعرت بأن عُمرًا كاملًا قد مر عليها هناك، وتساءلت إن كان هذا سينتهي أصلًا أم أنه مستمر إلى الأبد.. فتحت فمها لتصرخ.

هنا شعرت بذات اليد تجذبها خارج الكشك.. التقت عيناها بعصام للحظة فرأته ينظر إليها بقلق لا يقل عن قلقها.

اليد تقوم بتعبئة الطماطم في كفة الميزان كأن شيئًا لم يكن:

ـ كيلو يا شاطرة؟

ثم الطماطم توضع في كيس بلاستيكي. لم يطلب منها ثمنًا كأنه نال أجره فعلًا. وبعد دقيقة كانت تبتعد مترنحة كأنها خارجة من حانة.. رأسها يدور ووعيها ليس على ما يُرام.. لا تستوعب ما حدث.. ولا تعي أين هي.

بعد لحظات استجمعت الرؤى. عادت الصور تحمل معنى، وعادت الأصوات تقول شيئًا ما.

فسس س س س!

فطنت إلى أنها تعرضت لاستغلال بشع.. لم تكن تفهم هذه الأمور، وبالتأكيد لم يكن الجنس ضمن مفردات عالمها.. لكنها فطنت إلى أنها استخدمت كشيء، وأن التجربة كانت مقرفة جدًّا.. صحيح أن الرجل قبّلها وتحسس جسدها فقط، لكن هذا مقرف بما فيه الكفاية. وصمة.. عار.. يمكنها فهم هذا بالطريقة التي تفهمها طفلة في سنها. لا شك أن أنامله ستبقى ظاهرة على جلدها إلى الأبد...

مسحت آثار اللعاب عن شفتيها وخديها بكمها، وشعرت بأنها ترغب في القيء.

اتجهت إلى جدار وراحت تبصق وتبصق وتبصق. فلما انتهت كانت قد تعلَّمت شيئًا عن نفسها: هي لا تترك حقها أبدًا ولا تتنازل. لقد عبث بها ذلك الحلوف لكنها تعرف كيف تنتقم.

ألقت بالطماطم على الأرض.. ثم عادت بخطوات ثابتة إلى الكشك الذي نُصبت الطاولة أمامه.. وقفت من بعيد تراقب الرجل وهو يزن الطماطم للزبائن ويبدو لطيفًا جدًّا.. تعرف هذا السلوك جيدًا.. كانت زوجة خالها تشتمها وتزدريها فإذا ظهر خالها استحالت إلى ألطف كائن في الوجود. كان منهمكًا.. ينادي بضاعته في فخر، ويكوم أوراق المال في يده.

ثم إنه بدأ ينقل الطماطم من قفص كبير إلى قفص أصغر.. لهذا اضطر إلى أن يجلس القرفصاء على الأرض ويحني رأسه.

في ثبات اتجهت عفاف إلى الميزان.. مدت يدها لتتناول سنجة

ثقيلة لا بد أنها كانت تزن كيلوجرامًا.. حملتها في ثبات واتجهت لتقف خلف الرجل وهو منهمك.

إما الآن وإما أن تضيع الفرصة للأبد ولسوف يفتك بكِ.

حملت السنجة بكلتا يديها ثم هوت بها على مؤخرة رأسه الخالية من الشعر... لا شك أنها ضربة غير قاتلة ولم تؤذه أو تُحدث جرحًا، لكنها بالتأكيد آلمته جدًّا.. وبالتأكيد ستكون هناك «بطحة» بارزة ترافقه عدة أيام.

صرخ.. وقبل أن ينظر إلى الخلف كانت تركض كالهر الصغير متوارية وسط الزحام.

سمعت صخبًا وسمعت من يسبها بأنها ابنة الزانية، لكنها كانت تعرف أنهم لن يجدوها.. دعك من أن أحدًا لا يعرفها هنا.

كانت تركض منتشية جدًّا، راضية عن نفسها، مع الكثير من التوتر.. لهذا كان قلبها الصغير يخفق كطبل، موشكًا على التوقف.

لم تكن لتخبر أباها أو أمها، لأنها كانت ستتلقى اللوم في كل الظروف.. «أنت المُخطئة لأنك فعلت كذا وكذا ولم تفعلي كذا وكذا».. لم تكن قد كوَّنت خبرات عميقة عن الحياة، لكنها كانت تعرف أنها مُخطئة في كل الظروف.. كان الانتقام مشكلتها هي وحدها.

وعندما خرجت من السوق أخيرًا اتجهت إلى بائعة الطماطم الجالسة على قمة الشارع.. البائعة التي أنذرتها أمها من الشراء منها لأنها غالبًا تبيع بسعر باهظ.

ابتاعت كيلوجرامًا من الطماطم ثم ركضت مسرعة نحو البيت.

تُرى هل تركت أنامله وشفتاه أثرًا عليها؟ هل ترى أمها ذلك؟ هل تراه في عينيها؟ ما تعرفه هو أنها لن تعود إلى هذه السوق أبدًا بعد اليوم.

* * *

الانتهاك!

* * *

كان عصام يرتجف انفعالًا.. وقف أمام الجدار يحاول أن يقرأ الكلمة.

السنجة.. هل كانت هذه هي لفظة «السنجة» تلك التي كتبتها على الجدار؟ هل ما زال المشهد القاسي يدميها حتى لحظة انتحارها؟ بل هو سبب انتحارها؟ لن يعرف أبدًا...

* * *

أووووووع!

أفرغت نوال معدتها مرة أخرى على البساط. ثم أمسكت بمعدتها كي لا تخرج من فمها وتتدلى على الأرض، وركضت إلى الحمَّام.. وسمع عصام صوت تدفق الإسهال في الداخل. هرع إلى الصيدلية الصغيرة يبحث عن بعض أقراص «الفلاجيل» أو أي شيء آخر.. للأسف لا يوجد.

نظر في غل إلى لفافة الشطائر.. منذ التهمت الفتاة الشطائر وهي

لم تتوقف عن القيء والإسهال لحظة واحدة.. لحُسن الحظ أنه لم يأكل.. لكن شقته قد تحوَّلت إلى قسم طوارئ في مستشفى.. إن تنظيف هذه الفوضى قد صار مستحيلًا.

المشكلة كذلك أنها لا تضغط على زر الطرد في المرحاض أبدًا.

بطنه يتقلص من الاشمئزاز.. لكنه على الرغم من كل شيء مستمتع جدًّا بالسخرية الواضحة في هذا المشهد.. عندما يعبث ويُحضر إلى شقته فتاة ليل فإنها تصاب بتسمُّم غذائي وإسهال، ويتحول هو إلى مسعف أو ممرض.

تبًّا لذلك المطعم.. ماذا تتوقع من مطعم لا يبيع شيئًا...؟ بالتأكيد كل هذا الأكل تالف فاسد حامض ومزرعة للبكتريا، لكن الفتاة الجائعة لا تعرف الفارق بين طعام وآخر...

«دجاج كييف» و«دجاج شانجهاي» يا أولاد النصابين؟ لقد جرَّب «دجاج شانجهاي» هذا في ألف مطعم فذاق ألف طعم مختلف، وأدرك أنهم لا يعرفون معنى «دجاج شانجهاي» هذا.. الجديد هنا أنه مسمم، وهو قد نجا بأعجوبة.

أمسك بالقلم والورقة وكتب يُذكِّر نفسه بالموقف.. سوف تكون قصة قصيرة ممتازة يكتبها يومًا ما.. فقط لتنتهِ هذه الليلة بأي شكل.

انفتح باب الحمَّام وظهرت نوال على الباب.

لشد ما تبدلت.. حافية القدمين منكوشة الشعر تجر قدميها، وقد أغرق العرق وجهها فسال كل ما وضعته من مكياج ليخلق

بحيرات من الألوان. خيطان أسودان يسيلان على جانبي عينيها إلى أسفل، كأنها مهرج في لوحة من لوحات بيكاسو الزرقاء. في صباه كان منظر المكياج الذائب يثيره جنسيًّا.. ربما كان يُشعرُه بانهزام المرأة أو أنها نزعت الأقنعة الاجتماعية. لكن المشهد هنا مثير للشفقة والسخرية.

ارتمت على الأريكة غير عابئة بما يظهر أو لا يظهر من فخذيها.. كأنها تدرك أنها تحوَّلت إلى كتلة مرضية مقززة.. لقد انطفأت جذوة الأنوثة الشهية ولم يبقَ سوى رماد جسد سقيم.

نهض إلى الحمَّام وحاول ألا ينظر إلى أي شيء، وكتم أنفه، وحاول أن يضغط زر صندوق الطرد، ثم راح يسكب من زجاجة حمض «الكاربوليك» في كل صوب لتتصاعد رائحة المُطهر المحببة.

ناضب كبئر منسية منذ قرون.

فشل زواجك.

ماتت قصة حبك.

جفت قريحتك.

تركت وظيفتك.

تبخرت مدخراتك.

شاب شعرك.

والأدهى أنك لا تستطيع أن تعبث أو تنحرف.. محاولة العبث ليلة واحدة جعلتك تقضيها وسط القيء والإسهال.

هنا رفعت الفتاة رأسها وتجشأت بصوت عالٍ، ثم تحشرجت..

أوووووووووع!

وعادت تفرغ معدتها.

قال لها وهو يحاول ألا ينظر:

ـ هل تريدين الذهاب إلى المستشفى؟

هزَّت رأسها أن لا..

لكنه كان مذعورًا. بدأ يقلق فعلًا من أن تموت بالجفاف وتجلب له مصيبة. هرع إلى المطبخ وبيد مرتجفة بحث عن ليمونة وكوب ماء.. عصر الليمونة وأضاف إليها بعض الماء، ثم عاد إليها وهو يرتجف وأمرها أن تشرب:

ـ اشربي.. الله يخرب بيتك.. اشربي.

قالت بصوت متحشرج:

ـ أنا آسفة.. لقد أتلفت كل شيء.

لم يكن قادرًا على الغضب.. لقد تقلص فم معدته اشمئزازًا وتقززًا، لكنه كذلك كان مستمتعًا بالأبعاد الكوميدية للموقف، وخطر له أن الواقع يكون أحيانًا أغرب من خيال أي أديب.

كانت قلقة لأن ثيابها اتسخت.

قلقة لأنها تأخرت في داره.

قلقة لأنها لن تتقاضى مليمًا، ما لم يكن راغبًا في دفع ثمن قيئها على بساط الصالة.

قلقة لأنها فشلت في أن تلعب دور فتاة الليل.

والحقيقة أنها لم تلعب هذا الدور بنجاح سوى مرات معدودة من قبل.

أما هو، فكان يعرف أنه لن يجرؤ على طردها.. سوف تمضي الليل مريضة عنده، وسوف يُعنى بها كأنه ممرضة، وفي الصباح سوف يطلب من ينظف له الشقة، لكنه في النهاية سوف يدفع لها الخمسين جنيهًا.

لماذا؟

لأنه أبلهُ طبعًا.

٥

سمع صوتها يوقظه من الظلام.. كأنها تناديه وهو في قلب كهف:

- إبراهييم.

فتح إبراهيم أبو غصيبة عينيه وتمنى أن يكون قد صحا وبرأ من مرضه، لكنه عندما شم رائحة المستكة ممزوجة بالعرق أدرك أين هو.

كانت هذه غرفة النوم الضيقة، الحارَّة، ذات الجدران التي غزتها الرطوبة. الوسادة مبللة بالعرق.. الملاءات مغسولة بإهمال واضح.

وكانت تلك المرأة الشرسة البدينة تهزه كي يصحو:

- إبراهييم.

قال لنفسه: يا رب.. دعني أنهض من هذا الكابوس.. دع ناردين هي التي توقظني أرجوك. لقد طال المدى بهذا الكابوس حتى نسيت حياتي السابقة. أريد أن أرى تلك الفيلا الصغيرة في الساحل الشمالي،

حيث أجلس في الشرفة أرمق الأمواج تتكسر في بحر أزرق.. أزرق صاف بلون عينَي ناردين بالضبط...

كان يعرف أن اللحظة آتية لا محالة.. سوف يفتح عينيه ليجد نفسه في غرفة نومه العطرة، وذلك اللون الأزرق الخافت يتسلل عبر ستائر النافذة.. النافذة التي تمتد عبر جدار كامل.. سوف تأتي ناردين لتقدم له عصير البرتقال، وسوف ينهض من النوم ليلثم أرنبة أنفها. نعم، لا بد من أرنبة أنفها فهي ـ الأرنبة ـ صغيرة لعوب.

لكن الكابوس قد طال فعلًا...

أمس، رأى نفسه في عيادة طبيب.. أحد أساتذة أمراض الكبد الذين تقع عياداتهم في وسط البلد. كان هناك وحده.. في هذا الكابوس يرى نفسه مُسنًّا جدًّا، واهنًا، ذا كرش عملاقة.. وكان يجلس بانتظار دوره.

ثم نهض ليقابل العالم الذي سيخبره متى وكيف يموت.

تأمل الطبيب الأشعة وقرأ التحاليل.. ثم قرأ الأشعة وتأمل التحاليل.. ثم هرش أنفه مرتين.. ثم وضع الأشعة والتحاليل ثم نظر إليك باستمتاع وقال:

ـ لا تخف.. تلك الخلية المجنونة في كبدك تتضخم.. لقد خرجت عن السيطرة.. لا تخف.. لقد أرسلت بناتها في كل مكان.. لقد اتسعت.. لا تخف.. لن نطلق على المرض اسم سرطان مع أنه كذلك.. لن نخبرك أنك ستموت وأنك ستفرغ ما في معدتك من دم.. لن نخبرك أن عينك ستصفر وأنك ستبدأ في الهذيان

وتتصرف كالسكارى.. لن نقول هذا أبدًا، بل سنبدأ تعاطي العلاج الذي أعرف أنا وأنت أنه لا نفع منه.

ويدون لك الروشتة المليئة بالسطور.

تخرج من عند الطبيب مسرورًا.

كل هذا كابوس.. ومهما ساءت الأمور فلسوف تفيق منه. كلما ساء الكابوس وادلهم، كانت لحظة الاستيقاظ أروع وأجمل.

أنت الآن في الفراش.. تنهض من النوم عالمًا بأنك تأخرت وأن عليك الخروج حالًا.. سوف تفطر في المقهى جوار الورشة.. هذه قواعد الكابوس وأنت مضطر إلى لعبها.

تخرج من غرفة النوم لترى هذه الوجوه الشقية الكالحة المليئة بالإثم والجريمة.. هذه وجوه أطفاله كما يحاول الكابوس أن يقنعه. طبعًا هذا كابوس في كابوس...

يعرف وجوه أطفاله أولاد ناردين ويعرف أنهم أقرب إلى الملائكة كما يرسمونهم على مقاعد الصالون «الأوبيسون».

هل هذه زوجته؟ تلك المرأة البدينة المترهلة الضخمة التي تجلس القرفصاء على كرسي المطبخ، وقد ثنت عنق إوزة من تحت فخذها كأنها «هرقل» وقد استطاع أن يجندل «أطلس».. تدس بين منقاريها تلك الحبوب المبتلة بالماء.. هل حقًا اشتهى هذا الجسد في لحظة ما؟ مستحيل.

يهبط في الدرج المتهشم وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

زوجته تقول له وهو على الباب:

ـ لا تنسَ أن تتشاجر مع زوج المَرَة عطيات.

يهز رأسه أنه إن شاء الله سيفعل.. ويقول همسًا إنه مصاب بالسرطان.. لا يريد أن تسمعه.

يمشي في الحارة فوق الحجارة والقمامة وأحشاء الدجاج.

تذكر لسبب ما تلك الفتاة فائرة الجسد التي تعمل في مجزر الدجاج قرب «دحديرة الشناوي».. إنها جزء مهم من الكابوس، أو هي من العوامل التي تجعل الكابوس أقل بشاعة. تقف هناك ممسكة بالسكين لتذبح دجاجة أخرى.. لسبب ما كان رذاذ الدم الذي يلوث أناملها وأعلى صدرها يثيره جدًّا.. لماذا تذكَّر هذا الآن.. أحشاء الدجاج غالبًا...

كان هناك ديك رومي في المجزر، وقد اعتبر الفتاة دجاجة أنثى، وكان يلقي بنفسه على قدميها بلا توقف، وفي افتتان غريب، لكنه لم يستطع أن يلومه. وخطر له أنه من الجميل أن تمسك هي بجناحيه ـ جناحي إبراهيم ـ وتضعه في تلك المصفاة العملاقة ذات القمع ليتدلى رأسه ثم تحز رقبته.

اسمها عفاف.. لا يدري كيف عرف هذا لكنه يعرفه.

يخرج من الحارة ويقف عند بداية الشارع.

ليست لديه سيارة في هذا الكابوس.. هذا غريب.. إن عنده في عالم الواقع سيارة «فور باي فور» ثمنها مليون ونصف المليون.. لا بأس.. فليتعامل مع الكابوس بقواعده.

يقف على محطة الميكروباص وسط الوجوه المرهقة التي أفعمت حزنًا وكآبة.. تصل السيارة التي يتدلى «التبَّاع» منها بقوة فيزيائية لا يعرف كنهها إلا الله.. يركب.. سائق الميكروباص لا يكف عن الكلام عن لجان المرور وسحب الرُّخص والأقساط التي يجب أن يدفعها.

كالعادة هناك تلك المشاجرة عندما يعلن السائق أن الأجرة جنيه ونصف.. من مكان ما لا بد أن يرتفع صوت ذلك الرجل ضيق الخلق نافد الصبر:

ـ يا فتاح يا عليم يا رزَّاق يا كريم.. أنا ركبت امبارح بجنيه وربع.

فيرد السائق وهو يرفع صوت «الإم بي ثري» الذي كان «كاسيت» منذ عامين:

ـ اركب امبارح يا أستاذ.

ويهدد الراكب بالنزول، ثم يُفاجأ بأنها ثورة بلا ثوار، وأن أحدًا لن يشاركه في الغضب، لذا يصمت.. لقد سجل موقفًا وانتهى الأمر بينما يكرر السائق في انتصار:

ـ الأجرة جنيه ونصف يا حضرات.

منذ يومين أو ثلاثة كان في هذا الميكروباص بالذات، ونظر إلى الخلف.

كانت عفاف هناك جوار النافذة.. محشورة كالعادة.. وكان وجهها شاحبًا بطريقة غير عادية وقد اتسعت عيناها كأنها مذعورة.. التقت عيناهما.. للحظة حركت شفتيها كأنها تنطق بشيء ما...

لم يفهم.. هل هي تغازله أو تريد أن يغازلها؟ لم يفهم فعلًا...

نظر إلى الجالس جوارها فوجده نائمًا كالثور على مسند المقعد الذي أمامه.

هنا كانت محطته قد جاءت.. لم يجد الشجاعة للبقاء أكثر ليفهم ما تريده منه.. وعلى كل حال كان الميكروباص قد ألقى به في مكان ما من العاصمة المرهقة المتربة.

فتاة مثل عفاف قد ماتت فيما بعد ومزقها القطار.. ربما هي.. لم يعرف لماذا فعلتها.. الكلام كثير.. لكنه لا يحتاج إلى تفسيرات كثيرة.. هذا كابوس وكل شيء يمكن أن يحدث في الكوابيس على كل حال. قد تكون هي عفاف وقد لا تكون.. قد تكون ماتت وقد لا تكون.. ثم مَن هي عفاف أصلًا؟ ربما لا وجود لها في العالم.. بل هذا هو الاحتمال الأرجح. ربما هي تلك الصبية التي يحلم بها الجميع.

«كل هذا كابوس». قالها لنفسه عدة مرات.

ما زال الوقت مناسبًا كي يتناول الإفطار والشيشة قبل الذهاب إلى الورشة.

لقد اكتسب هذه العادة في هذا الكابوس بالذات، وهو يعرف أنه في الحقيقة يجلس في الشرفة ليتناول الكرواسان مع عصير البرتقال، لكنه في هذا العالم يبتاع فولًا وطعمية ورغيفين، ثم يذهب إلى المقهى ليشرب الشاي ويدخن حجرًا.

أنت لا تتصور تلك الألعاب الخبيثة التي يلعبها العقل.. إنه يذوق الفول والشاي على حلمات لسانه، ويشم الدخان بوضوح تام.. سبحان الله! كأن هذا هو الواقع.

في الكابوس يجلس هناك في المقهى ليجد جمال الفقي ومصطفى المزين وعباس الدلجموني.. مع أنهم من عالم الكابوس فإن وجودهم يبعث فيه بعض الألفة.. كان جمال الفقي يؤكد أن الفتاة التي ماتت تعمل في مشغل قريب وقد نامت مع صاحب المشغل. المسكينة عرفت أنها حُبلى، وحاولت أن تجهض نفسها في المستوصف الخيري، لكنهم طردوها.

كان رأي عباس الدلجموني أن الفتاة كانت مسطولة وتحت تأثير عقار ما.. لا بد أنها تعاطت بعض البرشام أو الحشيش.

قال مصطفى المزين وهو يبتلع قرص علاج السكر: إنها تعمل عند كوافير في شارع الحكمة.. هؤلاء الأوغاد يكسبون مكاسب فاحشة فعلًا. بينما قال واحد لا يذكر اسمه: إنها كانت تعمل في محل طُرح في شارع النوساني. ربما كان علاء أبو فرحة هو القائل: إن أمها أرادت لها أن تعمل في الدعارة فرفضت. إبراهيم يعرف يقينًا أنها تعمل في

مجزر دجاج، لكن مَن يدري؟ ربما ليست هي مَن دهمها القطار.. سوف يمر على المجزر ليرى إن كانت اختفت.

وينظر بطرف عينه فيجد ذلك الرجل غريب الأطوار يرمقه في فضول.. ثيابه رثة وذقنه نامية وحذاؤه بالٍ.. يبدو أنه مثل الآخرين أو بعبارة أدق يحاول أن يبدو مثل الآخرين.. لكن نظراته مزعجة ولا تشعرك بالراحة.

اسمه عصام.. هم يعرفون اسمه ولا يعرفون مَن هو بالضبط.. ولا يعرفون لماذا يأتي هنا ولا لماذا يتابع كل ما يقولون باهتمام.

نظر إليه وقرر أن يبقى حذرًا.. صحيح أن هذا كله غير حقيقي لكن الحذر واجب.

٦

جلس عصام في تلك الكافتيريا.. في الخارج على قارعة الطريق حيث الهواء النقي البارد ورائحة الليل.. يحب هذا الجو كثيرًا... الطقس يلسع فعلًا لكنه يعشق البرد.

جاء النادل بالشيشة ومعها المبسم المغلف بالبلاستيك. طريقة تقديم تختلف تمامًا عن طريقة الدحديرة. جاء الشاي في فنجان أنيق ومعه طاقم من الكريستال وطبق صغير فيه بعض قطع البسكويت.

فتح جهاز اللاب توب وضغط زر التشغيل.. صوت الرنين المطمئن الذي يخبرك أن برنامج النوافذ صحا من نومه. راح يراقب الشاشة ويحاول أن يجد خيطًا من الأفكار التي خطرت له. خيط واحد سوف يبدأ النسج منه.. والنسج سيتحول إلى ثوب كامل جميل.

سمع سيارة تقف بفرملة قوية وطريقة عدوانية واضحة. انفتح الباب... مجموعة من الشباب يجلسون إلى مائدة بجواره.. الكثير من الصياح والمرح والشخير.. لا توجد لديهم سوى طريقة واحدة

للمزاح هي أن كل شاب يتهم أم الآخر بأنها عاهرة.. وهنا ينفجرون ضحكًا باعتبار هذا ظريفًا جدًّا.

شاب يكلم صاحبه:

ـ يا ابن المَرَة.. البت فيفي حلقت لك.

ـ (صوت حلقي يدل على الاستنكار).. ما هيَّ حلقت لك انت كمان يا ابن الـ...

ـ (اسم فعل بمعنى أستهجن).. (وصف لعضو حميم لدى الأم).

ـ (صوت حلقي آخر).. وعهد الله وعهد الله لأطلَّع «... أمك».

الصوت عالٍ جدًّا.. الصوت إهانة في حد ذاته.. مع طابع تطجين مميز كأنهم من السوقة.. هل هؤلاء هم الذين قاموا بالثورة؟ بالطبع لا.. كانوا هنا يدخنون الشيشة.. هو ذهب إلى التحرير مرارًا ورأى الثوار، وبالتأكيد لم يسمع أحدهم يصف الآخر بـ«ابن المَرَة»، حتى لو كان يشتم «مبارك» نفسه. أسوأ ما سمعه في تلك الأيام كان «ارحل يعني امشِ».

بعد نصف ساعة من محاولة التركيز بلا جدوى أغلق الكمبيوتر. لم يجسر على أن يبدي الاعتراض أو الضيق لأنهم وقحون وعددهم كبير جدًّا.. سوف يتصرفون بوقاحة أكثر.

وضع ورقة مالية على المنضدة تحت القدح ونهض.

سمع مَن يصيح بين هؤلاء الشباب:

ـ نوال!

رفع عينيه في حذر فرآها.

كانت تمشي في تؤدة أمام الكافتيريا، وكانت قد استردت عافيتها وارتدت ثيابًا لا بأس بها.. تمشي في تؤدة كمن ينتظر شيئًا والأولاد التقطوا الإشارة على الفور.

التقت عينها بعينه ثم ابتعدتا فورًا.

لو كانت هذه قصة رومانسية لوقع في حبها ولاكتشف أنها المومس الفاضلة، لكن الأمر أعقد من هذا.

هي لن تنسى تلك الليلة، وهو لن ينساها.. ولسوف يتذكَّر كل هذا القيء والإسهال للأبد.. لقد احتاج إلى نصف يوم لتنظيف الشقة يومها، غير أنه مندهش جدًّا من أنها ما زالت تمثل إغراء لبعضهم. ثم خطر له أن هؤلاء الشباب يمرون بحالة تدفق عالٍ للهرمونات، ولو كان ما يمر بهم خنزير مصاب بالجذام فلربما شعروا بالهياج ذاته.

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

ابتعد وخمن أنها ستركب السيارة معهم.. لا بد أن هذا برنامجها الليلة.

ما عرفه كذلك يقينًا هو أنهم سيفعلون ما يريدون ولن يعطوها مليمًا.. سوف تتلقى علقة ساخنة. عندما كان في نيويورك عرف تعبير

«مفاجأة القديس جون»، وهو تعبير طلابي يعني أن يستغلوا بائعة الهوى ثم لا يدفعون لها شيئًا ويضربونها.. لا دخل للقديس هنا، لكنهم ينسبون هذه العادة لكلية بهذا الاسم اشتهرت بها.

إنه في وضع بائس، لكنه على الأقل ليس مجبرًا على قضاء ليلة مع هؤلاء الأوغاد ليأكل.. ما كانت لتوجد مهنة العاهرة لو لم يوجد رجال زناة، لهذا لم يكن على أدنى استعداد لأن يدينها وحدها.. لكنه كذلك لم يكن على أدنى استعداد للتعاطف معها.

هناك طرق أسهل يبيع المرء بها نفسه.

وفي تلك المرات يكسب أكثر من نوال ألف مرة.. هذا لو تقاضت أي مال أصلًا.. أي شيء سوى الصفعات والركلات والبصقات...

* * *

فرغ عبد الظاهر من صنفرة القضبان جيدًا، وتأكد من أنها نظيفة مغسولة بالصابون.. رشف رشفة من مشروب الينسون الذي جلبوه له، ثم رج علبة «السبراي» بقوة.. وبدأ عملية الدهان وهو يصفر...

إن اللون متجانس وجميل.. المهم أن تكفي العلبة؛ فهذا الدهان باهظ الثمن.

فس س س س!

* * *

في هذا الوقت كان الكيل قد طفح بحسين عبد الرحمن تمامًا.

كان في بداية اليوم قد ذهب إلى السوق وابتاع «دجاجة أمهات» ثقيلة الوزن لأن أمه تحبها. دفع ثمنها ثمانين جنيهًا وابتسم للبائعة.. هو لا يعرفها لكن وجهها سمح، ولها ضحكة عذبة فعلًا، تُعلق آيات قرآنية وتُشغل القرآن على الكاسيت وتشعل عودين من البخور.

كان عليه أن يذبح الدجاجة وينظفها سريعًا لأنه سينطلق بعد هذا إلى المحافظة.

حسين شاب أسمر نحيل لكنه مفتول العضلات، وله شعر أكرت مجعد يأبى أن ينام بأي ثمن. له كذلك عينان يقظتان تتابعان كل شيء.

يعمل حسين في مهنة لا نعرف ما هي بالضبط.. هو نفسه لا يعرف ما هي.. هؤلاء الشباب الذين يدورون على المقاهي ليبيعوا منتجات صينية رديئة، ويلجُّون عليك لحاجة شديدة فتصير فظًّا.. وهم أولئك الذين يقابلونك عند محطات الوقود ليسألوك عن اسم بلد المليون شهيد، فإذا قلت إنه الجزائر هنَّؤوك على عبقريتك ودعوك لحفل تُكرَّم فيه على كل هذا العلم.. فقط نحن نريد عشرة جنيهات لضمان الجدية وللتأكد من حضورك.

ما اسم هذه المهنة؟ هو لا يعرف.. أنا لا أعرف.. فقط نطلق على كل هذه الأنشطة اسم «مندوب» لأننا لا نعرف اسمًا آخر.

هناك في المجزر كانت واقفة تنظف أحشاء الدجاج.

التقت العينان.. في كل مرة تلتقي العينان.

اسمها عفاف وهي رشيقة جميلة، لكنها ارتبطت في ذهنه بهذه

الرائحة الكريهة الخاصة بالدجاج، وكانت تلبس جلبابًا ملوثًا بالماء والدم.. لذا كان يتمنى فعلًا لو يراها بثياب عادية.

أمام المحل يمر ذلك الرجل الذي يوشك على أن يلتهمها بعينيه.. اسمه إبراهيم على ما يذكر.. نظرات وقحة فعلًا وتجعلك عدائيًّا.. رجل مسن بدين ويبدو أنه «صاحب عيا»، لكنه لم يكف عن النجاسة. التقت عيناه بعيني إبراهيم فأسرع يبتعد.

الديك الرومي الذي تركوه حرًّا خارج القفص، يلقي بنفسه على قدميها كأنه يعتبرها دجاجة عملاقة بارعة الحُسن.. ركلته برفق ثم مدت يدها إلى حسين...

ناولها الدجاجة.. حملتها بصعوبة فقد كانت ثقيلة جدًّا:

ـ من أين جئت بها؟ من السوق؟

سألت وأجابت على نفسها من دون أن تنتظر رده، ثم اتجهت إلى قمع الذبح.. أشاح بوجهه وسمع صوت جلبة ثم بدأت رفرفة الجناحين تهدأ...

كانت عفاف تمسك بالسكين الملوثة بالدم وتنتظر...

ثم إنها بدأت تزيل بعض الأجزاء ووضعت الدجاجة في آلة الطرد المركزي ذات المسامير إياها، التي تجردها من الريش...

دوى صوت الهدير...

أوقفت الأداة ورفعت الدجاجة وتأملتها ثم كورت أنفها في اشمئزاز:

ـ تقول إنها من السوق؟

هزَّ رأسه أن نعم وهو يشعر بعدم راحة:

ـ هل من شيء خطأ؟

قالت وهي تنظر إلى الدجاجة المتدلية في يدها كأنها ثعبان كوبرا:

ـ فيها ماء كثير.. ماء أكثر من اللازم.

ـ ماذا تعنين؟

ـ ربما أنا واهمة.. ربما هي سمينة جدًّا.. على كل حال اذهب لقضاء مشوارك وعُد.. سأكون قد نظفتها جيدًا.

ـ ساعتان؟

ـ لا مشكلة.

فس س س س!

هكذا تركها وهو مندهش من رد فعلها.. لكنه إذ خرج إلى الشارع الرئيسي وركب الميكروباص، تحوَّل إلى كتلة «أدرينالين» وبدأ يفكر في مشكلته.

ثلاثة أعوام.. وقد دفع للمحافظة ما طلبت.. يعلم الله كيف استطاع تدبير هذا المبلغ. لقد مارس على نطاق واسع «تلبيس عمة ده لده». أي أنه اقترض من الجميع وسدد دينه للجميع.. هناك لعبة كراسي موسيقية دائمة يلعبها بدقة مخيفة.

في المحافظة يقولون إن تسليم الوحدات السكنية متوقف بسبب

المرافق. لقد ظفرت المحافظة بخمسة آلاف طلب.. وقد دفع كل متقدم ٤٠٠٠ جنيه. وكان كل شيء يبدو ورديًا خصوصًا مع نظام التقسيط المريح الذي وعدوا به.

من الغريب أنك تكافح في مصر للحصول على ما هو حق لكل «بُرص» يجد شقًا في الجدار يبيت فيه. وفي هذا الشق تحاول الحصول على حق يمارسه أي قط في زقاق: الزواج.

لكنهم في المحافظة يعترفون بأن المرافق كان يجب توصيلها قبل بناء أي شيء في المشروع، والآن يبدو الأمر مرهقًا وصعبًا.

المتشائمون قالوا إن المال ضاع لأن أحدًا لا يسترد مالًا من الحكومة أبدًا.

المتفائلون قالوا إن المشتركين سيستردون مالهم بعد فترة تكون المحافظة فيها قد حصلت على الأرباح وقامت بتوزيعها على المحظوظين.. باختصار هم أخذوا منك ٤٠٠٠ جنيه وحصلوا على أرباحها ثم أعادوها إليك بعد أعوام.. كان بوسعك أن تستغلها في أي مشروع.

ذهب إلى المحافظة ليقابل ذات المجموعة من الموظفين غير المبالين.. نظرات باردة خالية من المعنى.

تشاجر كثيرًا وهدد وتوعد.. خصوصًا عندما برز له ذلك الموظف ضخم الجثة ليقول له العبارة الخالدة:

ـ أعلى ما في خيلك اركبه يا أستاذ.

يبدو أنهم يدخرون هذا الموظف كحلٍّ أخير لضرب المشاغبين، وبالفعل أدرك حسين أنه لن يقدر على ضربه.

كطفل غاضب ألقى الكثير من التهديدات.. هذا السيناريو تم بحذافيره عشرات المرَّات، ومن المؤكد أنهم جرَّبوه مع الآخرين مرارًا.. قاموا باعتصام فلم يعبأ بهم أحد.. الزمن يقتل أي اعتصام.. وهم يعرفون هذا جيدًا.

هكذا غادر المكان وعقله يضع عشرات الخطط المجنونة...

حاول أن يتناسى عشرات المواقف التي خُدع فيها.. يمتصون دمه في العمل امتصاصًا.. الدولة نفسها تحاول خداعه. هل كان عبد الحميد الديب هو القائل:

هـا هنـا أيهـا المزنـوق طرطـر حتـى كأنـي حائـط كُتب عليـه

هل هناك لافتة على قفاه تدعو الناس لصفعه؟ هل هناك غرض آخر من وجود البشر سوى سرقته؟

عائدًا إلى «دحديرة الشناوي» هبط من الميكروباص، ومشى إلى حيث كان مجزر الدجاج.. لقد مرت ثلاث ساعات على كل حال وعليه أن يعود بالدجاجة لأمه.

كاد يصطدم بجمال الفقي.. كان يعرفه من الدحديرة، وكان يحمل جوالًا صغيرًا لا تعرف ما فيه، لكنه بادي السرور بشكل غريب...

كانت عفاف واقفة على الباب تبتسم في نوع من الشفقة والانتصار.

ـ دجاجتك!

قالتها وهي تناوله دجاجة صغيرة حقيرة.. دجاجة لن يتجاوز وزنها كيلوجرامًا ونصف الكيلوجرام بحال، ومهما كنت متفائلًا... وأشارت إلى طبق بلاستيكي مليء بالماء جوارها:

ـ حقنوها ليزيدوا وزنها.. قلتُ لك هذا.. عندما شققت بطنها سال منها نهر!

راح ينظر إليها وإلى الدجاجة في بلاهة.

هذا لغز حقيقي.. هل حقنت المرأة الدجاجة بالضبط قبل وزنها؟ أم حقنتها منذ فترة؟ وكيف عرفت أنه سيختار هذه بالذات؟ وكيف تظل الدجاجة حية وهي تحوي بداخلها نحو أربعة لترات من الماء؟

نظر إلى الدجاجة في اشمئزاز وهتف:

ـ لا أريد هذه... لن آكلها أبدًا ولو أذَّنت في أذني.

وشعر بالحمض يحتشد في فم معدته ويتسلق المريء.

لكنه أخذها ودسها في كيس بلاستيكي، وترك عفاف ليركض نحو السوق.

الشيطان.. الموت.. الجحيم.

لقد صار هو هذا كله في لحظة واحدة... الشيطان يحمل دجاجة ويركض في السوق.. الشيطان العجوز يريد الانتقام...

لقد بلغت قدرته على التعقل نهايتها.. لم يعد يملك أي قدرة على كبح جماح نفسه.

البائعة الطيبة سمحة الوجه التي تُعلق آيات قرآنية وتُشغل القرآن على الكاسيت، رأته قادمًا من بعيد، وأدركت أنه يحمل معه الخطر.. ربما الموت... كانت تكلم اثنين من الزبائن.

لم تتوقف عن الكلام لكنها مدت يدها في الدرج الخشبي الصغير وأخرجت أربع ورقات من ذات العشرين. عندما وصل إلى موضعها نظرت إليه في حزم ووضعت إصبعها على شفتها السفلى:

ـ ولا كلمة!

فتح فمه ليصرخ لكنها أخرسته من جديد:

ـ ولا كلمة!

اخرس! ولا كلمة!

دعني أخدع غيرك من فضلك.. لا تملأ الدنيا صراخًا فكلنا نُخدع.. أرى في عينيك أنهم خدعوك في المحافظة وخدعوك في عملك وخدعوك في كل مكان تواجدت فيه.. الحياة نفسها خدعة كبرى. الدولة تخدعك طيلة الوقت.. أنت لا تنال خدمات ولا رعاية صحية وليس من حقك المسكن ولا الزواج ولا العلاج... وبعد هذا كله تملأ الدنيا صراخًا من أجل دجاجة بها بعض الماء؟!

اخرس! ولا كلمة!

وفي غضب حقيقي انتزعت الدجاجة في كيسها من يده.. ثم دست الثمانين جنيهًا في اليد الأخرى. كانت تتصرف كمديرة بيت دعارة لا تبغي شوشرة.

كان يتمنى أن يصرخ ويُحدث جلبة، لكن شخصيتها كانت أقوى منه، وشعر بأنه يريد أن يخرس.. وأثار هذا جنونه أكثر...

ابتعد وهو يطلق السباب من تحت شاربه...

* * *

الدجاجة محقونة بالماء.

لن تنال مسكنك.

لا عمولة لدى شركة الإعلانات.

فاتورة الكهرباء مغلوطة.

عداد المياه لا يعمل، ومع هذا تدفع لهم مبالغ باهظة.

لم تبع شيئًا، وما بعته لم تحصل على عمولتك عنه.

المواصلات على حسابك.

الكشافات الصينية تالفة كلها.

شركة الأمن لم تقبلك.

تعرف ما ستفعله.. سوف تقتل...

* * *

كان حسين يهوى قراءة الشعر.. لديه في بيته الضيق بضعة دواوين مهترئة عتيقة.. غالبًا لا يجد اسم الديوان ولا اسم الشاعر.. صفحات ممزقة يستحيل أن تعرف ما كان فيها.

لكنه كان يعرف أن تلك الأبيات لشاعر اسمه شمس الدين الموصلي، يصف فقره فيقول:

أصبحت أفقر من يروح ويغتدي   ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزلي لم يبق غيري قاعدًا   فإذا رقدت رقدت غير ممدد

على أنه فيما بعد قرأ هذه الأبيات تحمل اسم «ابن دانيال».. لا يعرف الحقيقة فعلًا.. لكنه قرأ شعرًا قريبًا من هذا لابن دانيال يقول:

ما عاد عندي ما يُباع ويُشترى   إلا حصيرًا قد تساوى بالثرى
أف لعمــر صــار فــي ريعانـــه   مثلـي يـود بـأن يمـوت ويقبــرا

كان يقرأ هذه الأبيات ويدرك أن هناك تناسخًا عبر التاريخ.. هناك دائمًا شاب يتمنى الموت لأنهم استلبوه كل شيء.. هذه الأبيات تتكلم عنه بدقة، وبما لا يقدر لسانه على وصفه.

هذه هي اللحظة التي عرف فيها أنه سيقتل مسؤولًا... سوف ينتقم وسوف يذيق هؤلاء الأوغاد الويل... كلهم يخدعونني... جاء الوقت الذي يموتون فيه جميعًا.. أو على الأقل يموت واحد منهم ويبول الآخرون ذعرًا في سراويلهم.

الواحد من هؤلاء يبدو رائعًا قويًا وهو خلف مكتبه، لكنه سيبدو

أروع وهو يرى سكينًا تحت ذقنه المزدوجة الشحيمة أو طبنجة مصوبة إلى رأسه.. سوف يرتجف ويتوسل.. سوف يبكي كالنساء.

كانت هذه هي القطرة رقم مائة بعدما تلقى تسعًا وتسعين قطرة.. ثم حدث الشرخ في الصخرة. النظرة السطحية تقول إنه قرر أن يقتل مسؤولًا لأن الدجاجة محقونة! لكن الحياة أكثر تعقيدًا من هذا بالطبع.

كان قد توصَّل إلى قراره النهائي.. لا بد من شراء طبنجة.

لا بد من أن يجد حماصة.

٧

عرفتْ أنها امرأة بالطريقة الصعبة، ولم تكن فخورًا بذلك على الإطلاق.

عفاف الشيطانة الصغيرة.

عفاف التي تمارس كل موبقات الطفولة وشرورها.

عفاف التي تلعب «القال» على السطح وتلتهم العسلية والحرنكش وتنط الحبل في الحارة.

عفاف الطفلة التي تجيد الانتقام.

هناك تلك اللحظة التي يصحو فيها المبيض وتبدأ لعبة «الاستروجين» و«البروجستيرون» في دمها.

كانت تلك اللحظة سيئة جدًّا.. لأنها كانت جالسة على سطح البناية مع محمد وعلاء وسمية... وعلى الأرض كانت قد رسمت ثلاثة خطوط تتقاطع مع ثلاثة خطوط.. تسعة مربعات هي العالم السحري للعبة السيجة.

قطعها حجارة صغيرة، وقطع محمد نوى نبق جففته الشمس.

رائحة فضلات الدجاج التي جففتها الشمس ليست رائحة كريهة جدًّا. الغسيل فوق الحبال تتساقط منه قطرات من الماء فتجعل الحياة رطيبة جميلة.

كانت المباراة محتدمة، وقد جلست متربعة وهي تعبث في الطلاء الرخيص على إصبع قدمها الكبيرة. تقشره بأظفارها. ومحمد كان يعبث في أنفه محاولًا استخراج شيء ما سوف يشعر بسعادة عظمى لو أخرجه.

كانت القطة تحوم حولهم.

تناول علاء غطاء زجاجة مياه معدنية وقذفه عليها.. سقط الغطاء جوارها فثنت قوائمها لكنها لم تفر.. ثم إنها اتجهت إلى عشة الدجاج وبثقة اجتازت طريقها وسط الفضلات.. راح الدجاج يصرخ في جنون وهستيريا، ويتواثب، وقد أضحك هذا المشهد عفاف كثيرًا.

نقلت حجرًا آخر لتغلق الرقعة أمام محمد.

فس س س س!

ثم شعرت بذلك التدفق الساخن.

شهقت ووقفت مذعورة.

نظرت إلى قدميها.

كان هناك دم أحمر يسيل منها ملتفًّا حول الفخذ وقد تساقطت

قطرات عديدة على رقعة السيجة.. ورأى الأطفال ما حدث فصرخوا رعبًا:

ـ عفاف تتبول دمًا!

أما هي فقد شحبت ووقفت عاجزة عن النطق، بينما هم يمسكون بيدها ليبعدوها عن الرقعة.. الخيط الأحمر ينحدر صانعًا بركة صغيرة.. ماذا حدث لي؟ ماذا حدث لي؟

كانت تشعر بالرعب.. لكن الأسوأ من الرعب هو شعورها بالذنب.. لقد أتلفت شيئًا في جسدها من دون أن تعرف كيف أو متى.. بالتأكيد هذا هو ما حدث.

والسؤال هو: هل يقدر الطبيب على إعادة ما تلف؟

كانت تقف هناك وقد ضمت ساقيها ولفت الثوب عليهما بقوة، وبدا أنها لن تذهب إلى أي مكان حتى يوم القيامة.

محمد هرع إلى بيته الذي يقع تحت السطح مباشرة، وبعد لحظة كان قد عاد مع أبيه.. الأب الذي ألقى نظرة على المشهد وفهم كل شيء.. هكذا طلب منها ألا تخاف وحملها بين ذراعيه.

وانطلق الموكب المذعور عبر الدرج إلى شقة عفاف.

لا بد أن الأم سمعت القصة كاملة قبل أن تدخل عفاف الشقة، وراحت عبارة «عفاف تتبول دمًا» تتكرر ألف مرة.

وعندما فتحت الباب وأمسكت بابنتها كانت قد فهمت

ما حدث وشاعت ابتسامة خافتة على شفتيها.. ابتسامة هي مزيج من الشفقة والتحفظ والفهم... ابتسامة من طراز «إذن ـ أنت ـ صرت ـ موصومة ـ مثلي».

أبو محمد أمر الأطفال بالرحيل ورحل معهم من دون أن يُعلِّق.

انغلق الباب، وكانت عفاف تشهق مذعورة والمخاط يسيل من أنفها بلا توقف، بينما الأم تطمئنها:

ـ كل البنات مررن بلحظة كهذه.. أنت بخير.

لا. ليست بخير؛ لأن أباها ظهر من الحمَّام وصابون الحلاقة يغطي نصف ذقنه. كان قد سمع وعرف ما حدث. بدا لها كأنه وحش أسطوري من وحوش القصص للحظة.

تكاد تقسم إن عينيه كانتا تطلقان شررًا وإن أذنيه استطالتا، وإن لحيته نمت فجأة، وإن أسنانه اصفرت فجأة:

ـ يا بنت الكلب!

يقولها وهو ينزع الشبشب من قدمه.

ـ يا بنت الكلب!

يقولها وهو يبصق في وجهها.

ـ يا بنت الكلب!

يقولها وهو يمسك بساعدها بيد من حديد.

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يحاصرها في ركن الصالة.

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو ينهال عليها ضربًا بالشبشب. هذه المرة كان يضرب الوجه.

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يحاصرها في ركن آخر.

كانت تعوي من الألم، وعزز هذا الانطباع الذي كان لديها.. هي أفسدت شيئًا ما. أتلفت شيئًا في جسدها.. وأبوها يعاقبها على ذلك.

الأم تكرر:

- إن الفتاة لا ذنب لها!

لكنه غاضب جدًّا.. غاضب لأن هذا حدث أمام شهود ذكور، وغاضب لأن جاره هو الذي جاء بالفتاة يحملها من سطح البناية، وغاضب لأن دمها في كل مكان يحكي قصة أنوثتها. كانت عفاف صغيرة جدًّا لكنها أدركت بشكل ما أنها تُعاقب لأنها أنثى.. الجريمة الشنعاء هي أنها لم تُولد ذكرًا، وهذا هو الخطأ الأعظم.

الآن انتقلت الشتائم إلى صفحات أخرى من قاموس البلاغة.. وصارت سرعة الضربات أكبر.. وانتقلت الشتائم إلى أمها التي حاولت أن تنقذها عشرات المرَّات، حتى إنها تلقت عدة ضربات في صدرها.

عندما انتهى الرجل من عفاف، بسبب الإرهاق على الأرجح، لم يكن في صدرها هواء، وتحوَّلت حبالها الصوتية إلى ألياف.. نامت عدة قرون ولم تنل شيئًا من الطعام لعدة أجيال.

بعد أيام كانت قد عرفت المزيد عن الحياة، وضاقت الجدران من حولها أكثر.. وحينما صعدت إلى السطح من جديد كانت مثقلة بالهموم كأنها امرأة صاحبة تجارب.

رأت رقعة السيجة حيث هي وقد تلوثت بالدم الجاف الذي اسودَّ الآن.

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت فكرة الأنوثة عندها برقعة السيجة الملوثة بالدم، وأثر الشبشب على كل بقعة من جسدها.

الأب الغاضب.

❁ ❁ ❁

العار!

❁ ❁ ❁

عبر عصام القضبان غير مبالٍ بالقطارات القادمة.

توقف عند جدار مصنع الحلوى الذي هرعت سحلية صغيرة تتوارى في شق منه. وقف يرمق الكلمة على الجدار وبدت له منطقية جدًّا.. كيف لم يستطع قراءتها من قبل؟

السيجة

هذا واضح جلي... لسبب ما ظلت الفتاة حتى اللحظة الأخيرة تذكر رقعة السيجة الغارقة في الدم. لقد غيرت كل شيء في حياتها، ولعل النهاية التي لاقتها لها علاقة قوية بهذه التجربة.

عندما كتبت الفتاة كلمة «السيجة» على الجدار كانت ترسل رسالة.. الرسالة تتعلق بصدمة الأنوثة الأولى.. لكن باقي الرسالة لم يتضح بعد...

هزَّ رأسه في فهم وتراجع بظهره من دون أن يبعد عينيه عن الجدار.

الآن بدت له خيوط القصة واضحة.. الصدمة الأولى.

هدير قطار آتٍ من بعيد.. لكنه لن ينظر.. لقد صار أكثر وقارًا من أن يبدي الذعر أو اللهفة لدى قدوم قطار. إنه يصير من رجال الدحديرة بمرور الوقت.

* * *

كان إبراهيم يعرف أن كوابيسه تبدو واقعية أكثر مما يجب.. حلم ذات مرة أنه متهم في قضية أمن دولة وقد قبض عليه.. تعرض للتعذيب فعلًا وكهربوا جسده فعلًا.. شعر بهذا كله.. وعندما أوشكوا على دس عصا المكنسة في جسده نهض من نومه، ولشد ما شعر بالنشوة وهو يدرك أنه في فراشه المبلل بالعرق.. الكوابيس تمنحك لذة لا شك فيها؛ هي لحظة الإفاقة.

لكنه بصراحة بدأ يشعر بتوتر عندما جاء العصر وعاد إلى بيته من دون بادرة توحي بأنه سيفيق.

يجتاز بركة الماء القذر التي سكبتها باتعة على الباب ممزوجة بعمل سحري ما تكيد به لزوجته.. يصعد في الدرج.

تخبره زوجته أن الواد يوسف قد نال صفرًا في امتحان الرياضيات ولا بد من درس خصوصي.. تخبره أن البت شيماء مزَّقت حذاءها للمرة الثالثة.. تخبره أن لوزتَي أكرم التهبتا ويبدو أنه لا بد من الجراحة، وإلا هبطت الحمى الروماتيزمية على قلبه.. تخبره أن فاتورة النور جاءت لكنها لم تدفعها لأنها مرتفعة جدًّا ولا يوجد قرش أحمر في البيت.. تخبره أن بالوعة المطبخ مسدودة.. تخبره أن سليمان جارهم وقف في نافذة المنور واختلس لها عدة نظرات وهي في الحمَّام.. يجب أن يتشاجر معه.

ـ لا تنسَ أن تتشاجر مع زوج المَرَة عطيات.

لا بأس... الكابوس شنيع، لهذا تكون لحظة الاستيقاظ عذبة.

سوف يتحمل.

ـ ألن تتشاجر مع سليمان؟

هزَّ رأسه بما يفيد بلى أو نعم.. إنها من طراز النساء اللاتي يردن أن يتشاجر أزواجهن طيلة الوقت، فإذا ما فتح سليمان رأسه ـ وهذا أكيد ـ ملأت الدنيا صراخًا على سبعها وجملها.

هؤلاء الأطفال الأوغاد الذين يشبهون قراصنة الكاريبي.. لا يمكن أن يكون شخص بهذه الخسة والوقاحة إلا إذا كان طفلًا.. في عالم الواقع أطفاله يختلفون كثيرًا جدًّا.

هذا ليس واقعك.. هذه ليست حياتك.. اصبر قليلًا.

يدخل الفراش القذر والغرفة كريهة الرائحة التي تناثرت الخرق والثياب المكومة في كل ركن منها.. يأمل أن يظفر بساعات من النوم.

هنا تدخل زوجته الغرفة.. إنها تنزع ثوبها القذر لترتدي أبشع قميص نوم رآه في حياته، ثم تندس جواره فيئن الفراش البائس ويتأوه ويعوي.. إنها ما زالت تتكلم.. تتكلم عن ارتفاع سعر الخضار وعن جارتها الوقحة عطيات وعن آلام الظهر وعن حاجتها إلى غسالة «فول أوتوماتيك».. يقول لها وهو ينظر إلى السقف حيث يمشي بُرص صغير:

ـ كنت عند الطبيب.. أنا مصاب بفيروس «ج».. والحالة متقدمة.

ـ هذا هو ما تجيده.. المرض.. منذ عرفتك وأنت مريض بشكل ما.

وتنهال على رأسه بالسباب والإهانات والشتائم.. هؤلاء لم يعودوا رجالًا.. هؤلاء مسوخ صنعتها هرمونات الفراخ البيضاء ولن تندهش لو نما له مبيضان ورحم واشترى مشدًّا، وهي البائسة التي تغسل وتمسح وتطبخ.. فلو كانت خادمة لوجد في عروقه بعض القوة.. الفارق هو أن الخادمة تتقاضى مالًا، أمَّا هي فتُضرب بالحذاء، والله يرحمك يامَّه.

ينام وهو يدعو الله أن يفيق أو يموت.

إنه الصباح.. شعور عام بالقلق يغزوه وهو يرى ذات معالم الحجرة وذات الفيل البشري الذي يسيل لعابه على الوسادة.

هذه الجدران تخنقه.. هاااآه! أخذ شهيقًا عميقًا.. يتمنى الخروج من جدران هذا الكابوس.. هناك فتحة ما لكن أين هي؟

لم يجد الفتحة.. لم يجدها وهو يراقب زوجته تُعد الإفطار للأطفال.. تُلبسهم ثيابهم وهي تصفع هذا وتلكز هذه.. لم يجدها وهي تضع حذاء البنت في وجهه ليصدق أنه ممزق.. ثم نزل الأوغاد إلى مدارسهم وعرف أن عليه أن يلبس ثيابه ليذهب إلى العمل.

لو كنت في كابوس فعليك أن تلعب بقواعده.

إنه كابوس.. هذه ليست زوجتك.. هذه ليست حياتك.. هذا ليس بيتك.. هذا ليس بلدك.

حمدًا لله! سوف تفيق بعد قليل لتجد نفسك في فراشك الوثير المبلل بالعرق، من ثم تنهض للحمَّام لتفرغ مثانتك وتشرب كوبًا من الماء المثلج وتعود للنوم.

٨

جرى جمال الفقي.. حتى بلغ مصرف الماء.

هذا هو المكان المعتاد الذي يقصده في كل مرة، وكان يعرف أنه لا يوجد هنا سوى بعض الصيادين المُسنين. أحيانًا كان يقابل مصطفى المزين جالسًا، وجواره صفيحة السمن الصدئة والراديو الصغير، وهو يدلي الصنارة في الماء.. بالطبع لم يكن يصطاد أي شيء إلا عندما يأتي الغروب وتنكسر حدة الشمس. كان مصطفى ينصحه ألا يأكل سمك القراميط بأي شكل لأنه يأكل الـ.... من المصرف.

لكن بالطبع لم يكن جمال يرغب في أن يقابله مصطفى الآن.

اتجه إلى الضفة، وتلفت حوله.. ثم بدأ يُنزل الحبل ببطء في الماء... سمع صوت العويل والحركة والذعر.

قلبه يتواثب بين الضلوع.. هذه هي اللحظة التي بلغ الذروة فيها فألقى بالجوال في الماء وارتمى على الضفة يشهق.

العرق يبلل جبينه وهو موشك على أن يغيب عن العالم.

كان بحاجة إلى وقت آخر حتى ينعم بلحظات كهذه من جديد.. ليست لذة متاحة طيلة الوقت للأسف.

* * *

لم يكن جمال بعيدًا عن العيون إلى هذا الحد.. لقد رآه عباس الدلجموني يرقد هناك على حافة المصرف وهو يتلوى من النشوة، وخطر له أن الرجل يبدو كمن قضى ليلة حمراء حافلة... لكن هذا بدا غريبًا طبعًا، وعلى كل حال لم يكن يحبه ولا يرتاح له على الإطلاق، وإن كان يقابله دومًا في المقهى. جمال مندفع وقح قليلًا وله آراء تثير الغيظ.

لكن عباس الدلجموني لم يكن رائق البال. كان يتجه إلى الدحديرة ليقابل صلاح.. إنه ينتظره في عشة من العشش العشوائية المتراصة قرب قضيب القطار، ومعه شرائط البرشام. ككل مدمن برشام اكتشف عباس أن المهنة الوحيدة في العالم التي تتيح له دخلًا يسمح بمزيد من الإدمان، هي تجارة المخدرات.. أي أنه يبيع جراثيم دائه للناس.

كان يرى العالم كله من منظور كيميائي ضيق، ولهذا كان يؤمن بأن أي تصرف غريب في الكون ناجم عن تعاطي المخدرات، وكان يؤمن مثلًا بأن بوش الابن ما زال «صاحب كباية» ولم يقلع عن الخمر كما يزعم.. نظرات عينيه وتصرفاته تقول هذا. كما كان يؤمن بأن «أوباما» حشَّاش قديم لكنه يتعاطى الآن أنواعًا باهظة الثمن:

- شغل المعلم لنفسه.. تخيل رئيس أمريكا بكل من تحت يديه من علماء.. لا بد أنهم يصنعون له أجدع برشام في الكون.

لو صار رئيس جمهورية لكوَّن وزارة للمزاج فقط.. وزارة من العلماء والكيميائيين والمزارعين، مهمتها أن تصنع له أعظم مخدر في التاريخ.. لا بد أن «أوباما» فعل هذا فعلًا.

كانت صابحة زوجة صلاح تقف بجلبابها الأسود الضيق أمام العشة تنشر الثياب على حبل هناك، لكنه بالطبع حاول أن يتحاشى النظر إليها.. جلباب أسود ناعم ضيق خبيث يعد بمسرات خفية حراقة. هذه امرأة حقًّا.. امرأة مفعمة بالأسرار وتملك مفاتيح عالم الأنوثة الرهيب المعقد، وليست مجرد فتاة معجبة بنفسها في الشارع. لكن هناك قيمة اسمها «الأخوية» يستعملونها طيلة الوقت ويتكلمون عنها في كل الظروف.. وهي تقريبًا القيمة الوحيدة في حياتهم.. ولهذا لم ينظر إليها. لو كنت تثق في كلامي فأنا أؤكد لك أن شيئًا لن يحدث بينهما.. هناك مقدمات لكن لن تكون هناك نتائج.

صلاح لم يُرزق أطفالًا بعد، ويبدو أن لديه مشكلة جنسية ما لكنه لا يتكلم عنها.

رأى الفتى ابن أم بلبل يبتعد وقد بدا عليه الرضا.. يعرف أن الفتى زبون لكنه يتعاطى البانجو فقط ولا يتعاطى «الترامادول». لا يعرف ما يعمله الفتى.. لكن مهنة «مدمن» مهنة شائعة هنا ومحترمة على كل حال. الكل يفهمها ولا يتعالى عليها.

كانت العشة ضيقة جدًّا.. بها فراش فقط، لكن هذا هو كل شيء فعلًا.. الفراش يحتل كل المساحة فلا توجد إلا مساحة صغيرة تحته تسمح بوضع موقد وآنية طبخ، وقد تم فرشه بالكليم، بينما هناك على الجدار أرفف خشبية تم تزيينها بورق «كروشيه» ملوَّن على شكل مثلثات أو عرائس مقصوصة من ورق الكراريس.. على أحد الأرفف جهاز كاسيت.. وهناك عدة صور فظة خشنة للممثلين تم قصها من مجلات أو اشتروها في زمن ما.

لا توجد طريقة للبقاء في هذا البيت سوى التربع على الفراش. وقد فعل عباس الدلجموني هذا.. كانت كل عظام جسده متعبة مؤلمة كعادة مدمني «الترامادول».. الفكرة أن العقار اللعين يجعلهم يُحملون جسدهم الكثير من المشقة والتعب، مما يدمر العضلات تدميرًا...

نزل صلاح تحت الفراش وأخرج كيسًا من البلاستيك الأسود.. وثب إلى الفراش ليبدأ التقسيم.

إنه «الترامادول» الصيني الجديد... يؤدي العمل جيدًا، ولكن فيما بعد سوف يعرف الجميع أنه يسبب بؤرًا صرعية.. أشعل عباس سيجارة وسحب منها بنَهم.. هذه من علامات «الترامادول» المهمة.. أن يبدو دخان السجائر أكثر متعة ولذة.. والحقيقة أن معدل تدخينه صار الضعف.

الحوار مقتضب جدًّا.. هؤلاء قوم فرغوا من الكلام من زمن وقالوا كل ما يمكن قوله.. لهذا معظم المحادثة هي:

ـ إيه؟

ـ آه.

ـ أهه.

ـ أيوه.

لم تكن هذه أفضل طريقة لتوزيع الصنف ولا أكثرها حذرًا، لكنه كان قد تعلَّم مع الوقت أن «الدار أمان»، وأن الشرطة لا تتدخل أبدًا.. دائمًا هناك مصالح مشتركة مع الشرطة.. ومن يتورطون فلأنهم لم يتعاونوا مع المخبرين في الوقت المناسب، كما أن معظم من يُقبض عليهم هم ضحايا زوجة غَضْبَى بسبب ضرتها.. أي أنه لا بد من شخص ينقب وراءك، وفيما عدا هذا فلا مشكلة ولا خطر.

انتهت العملية فدس عباس ما حصل عليه في جيوب السترة.. فرغ من شرب الشاي بسرعة وأشعل سيجارة أخرى، ثم وثب نازلًا من على الفراش ليقف أمام الباب:

ـ سلام.

ـ سلام.

ثم مر أمام صابحة التي تقف بجلبابها الأسود الضيق أمام العشة تنشر الثياب. رمقها بنظرة جانبية سريعة تجمع بين التحية والوداع والاشتهاء. دعني أؤكد لك من جديد أنه لن يحدث شيء بينهما..

إن قواعد الأخوية قوية جدًّا، وعلى كل حال عباس لا يرغب في تضييع هذه العلاقة التجارية الناجحة.. سوف يعرف صلاح وسوف يأتي ليفتك به.. وغالبًا سوف ينجح.

«النسوان كتير».

في كل مرة يقولها لنفسه وهو يبتعد.

لكنه إذ ابتعد بضع خطوات وجد نفسه أمام شاب يعرفه. لا تربطهما صداقة لكنهما متعارفان. كان هذا هو حسين عبد الرحمن.. شاب «غلبان» يعمل مندوبًا في أكثر من شركة.. يبيع كل شيء تقريبًا، ومن الواضح أنه لا يجد ما يكفي ليأكل.. وكان يمسك ببقايا سيجارة يبدو أنه لن يتخلص منها أبدًا.

يحمل حقيبة جلدية مهترئة.. على الأرجح فيها زجاجات عطر أو أمواس حلاقة أو ماكينات خياطة صينية بحجم قبضة يدك. المهم أنه لا يبيع أي شيء منها...

واصل المشي فوق الأرض الوعرة وهو يشعر بثقل ما يملأ به جيوبه. ليس هذا أفضل وقت للثرثرة في الشارع. لكن الفتى لحقه وهو يضحك.. لا يمكن أن يكون ما يطلبه الفتى هو الصنف.. على قدر علمه هو لا يتعاطى أي شيء. من المستحيل أن يكون قد قرر أن يبدأ الآن.. في هذه الساعة.. ثم مَن أخبره أن عباس الدلجموني يبيع أي شيء؟

بدأ يشعر بضيق.. نظر إلى الفتى في غِلٍّ ثم توقف:

ـ هل من شيء تريده؟

حتـى كأنـي حائـط كُتب عليــه   هـا هنـا أيهـا المزنـوق طرطــر

قال الفتى في حرج:

ـ أولاد الحلال قالوا إن بوسعك أن تساعدني.. قالوا إنك تعرف مكان حماصة.

نظر إلى الفتى ومضغ فلتر السيجارة التي بين شفتيه.. لم يقل أي شيء.

قال الفتى وهو يرتجف وينظر حوله:

ـ أريد.. أريد طبنجة.

إذن هذا هو الموضوع.. فكر في أن يصرخ في الفتى قائلًا إنه لا يعرف أي شيء ولا يعرف من هو حماصة هذا، ثم قرر أن وقت هذا السخف قد مر.. لا بأس من أن يعرف عن الموضوع أكثر.

على مسافة قريبة مر ذلك الرجل اللحوح الذي يرونه في المقهى كثيرًا ويحاول مصادقتهم بأي شكل.. ليس مخبرًا، ولا يبدو منتميًا إلى الحكومة أصلًا، لكنه لغز ولا بد من الحذر منه.. يبدو أن اسمه عصام، وهو كالذبابة من الصعب التخلص منه. هكذا ظل عباس صامتًا حتى ابتعد هذا العصام ثم نظر للفتى سائلًا:

ـ ماذا تنوي عمله بالطبنجة؟

سؤال غريب.. فيمَ يستعملون الطبنجة إلا للقتل؟ ليس لدق

المسامير عندما يضيع الشاكوش.. بالتأكيد.. الفتى يواصل النظر حوله في حذر.. ثم يلقي بالسيجارة ويقول:

ـ سأقتل.. سأقتل شخصًا.

ـ من هو؟

ـ لم أعرف بعد.

يا ابن المجنونة! يبدو أننا سنمرح كثيرًا.. هؤلاء البلهاء أمتع من البانجو ألف مرة.. هذا الفتى يعتقد أنه غاضب إلى درجة القتل.. من المسلي أن تراقب هؤلاء.. غضبهم ممتع كغضب الأطفال ولا يحققون أي شيء من خططهم الانتقامية أبدًا. فقط يوشكون على الجنون ويموتون كمدًا.

راح يفكر من جديد.. نفث سحابة من الدخان في وجه الفتى ثم قال:

ـ من قال إنني أعرف مكان حماصة؟

ـ أرجوك!

قالها الفتى في إصرار، وهذا يعني أنه متأكد من أن عباس يعرف مكان حماصة.. في الحقيقة كان هذا صحيحًا.. لكن حماصة ليس سوبر ماركت أو كافتيريا.. أنت لا تأخذ الناس إلى السرجة لمجرد أنهم يريدون ذلك.

ـ اسمع يا برنس.. أنا لا أعرف أي شيء عن حماصة.. الطبنجات

لا تُباع في الشارع.. ثم إنها خطرة جدًّا وقد تؤذيك.. ربنا يسترك.. خلاص؟

وأوشك أن يبتعد لكن الفتى تمسك بطرف سترته.. هنا جن جنونه:

ـ هل تريد أن تموت؟ لو أردت أن أنزع وجهك من مكانه فلتفعل هذا مرة أخرى.

«الترامادول» يشعره بأنه ذو قوة كاسحة وأنه قادر على تفجير رأس أي شخص.

ـ أرجوك.. سأدفع لك ما تريد!

هنا قرر عباس أن يلعب اللعبة المعتادة.. يشتري ولا يبيع.. سوف يبقي الفتى قريبًا وفي الوقت نفسه لا يقدم له أي شيء. لن تكون هناك طبنجة. لن يكون هناك حماصة.. لكنك لن تعرف هذا.

ـ اسمع.. تعال غدًا في نفس الوقت عند عربة الفول.. سأحاول أن أجد لك واحدة.

وتبادلا النظرات.

قال حسين لنفسه: الرجل كاذب.. يريد الخلاص مني فحسب.

قال عباس لنفسه: الفتى مجنون.. أريد الخلاص منه فحسب.

قال حسين لنفسه: لا أصدق كلامه.. الأمور ليست بهذه البساطة.

قال عباس لنفسه: يجب ألَّا يصدق كلامي.. يجب ألَّا يكون المرء بهذه السذاجة.

قال كلاهما: الآخر وغد وقذر.. وعليَّ أن أكون حذرًا.

* * *

فرغ عبد الظاهر من غسل القضبان جيدًا، وتأكد من أنها خالية من ذرات التراب.. سوف يرش الطبقة الثانية من الدهان... هذه ستجعل اللون أكثر تجانسًا...

لا بأس... المهم أن تكفي العلبة.

* * *

فرغ مصطفى المزين من إبعاد الذباب بالمنشفة، ورش بعض الماء، ثم جلس على المقعد يتابع واحدة من القنوات الفضائية الدينية التي تتحدث عن عقوبة سرقة «الدِّش» عن طريق الوصلة. جلس يمصمص شفتيه متعظًا وهو يتسلى بركل سلك الوصلة الذي يتدلى من التلفزيون إلى الأرض.

هناك في المرآة المشروخة رآها وهي تحمل لفافة الفول والطعمية، تمشي بسرعة أقرب إلى الجري قاصدة محل الكوافير الواقع أمامه.

اسمها عفاف كما قيل له.. وجسمها جميل لكن بالطبع لم يعد في جسده طاقة تسمح له بأي نشاط غير الأكل وقضاء الحاجة.. حتى

التبول صار عسيرًا مع تلك البروستاتا اللعينة.. إن البول يخرج كأنه من نافورة تبلل كل شيء.

كان مصطفى من هؤلاء الشيوخ الذين عبثوا كثيرًا في شبابهم، ثم لما تقدمت بهم السن ضاق خلقهم وقصر فتيلهم. يكفي أن تتبادل معه ثلاث كلمات حتى ينفجر في عصبية وهو يرتجف.. بينما تبرز الأوردة على فوديه وتجحظ عيناه.. ويردد ألف مرة: «إنت مين انت؟ مين انت؟» أو: «اتكلم بأدب».

يحاول أحيانًا إقناع نفسه بأنه ـ وقد صار الوقت ضيقًا ـ مهتم بالدين وقراءة القرآن وسماع القنوات الدينية، لكنه ينسى ذلك سريعًا مع أول فتاة لعوب تمر أمام المتجر، أو أول نكتة بذيئة يحكيها له جمال الفقي، أو أول شخرة يُطلقها في وجهه عباس الدلجموني.. عندها ينسى كل شيء ويفسد في الأرض كما كان يفعل وعمره عشرون عامًا...

بالطبع مع عصبيته هذه لم يعد هناك زبائن تقريبًا... لا يحلق إلا لعدد محدود جدًّا من الناس، وهو بصراحة لم يعد يطيق الزبائن.. لو كانت هناك طريقة تجعل الزبون يدفع المال ثم يرحل من دون حلاقة لكان هذا رائعًا.. يبدو أنهم في اليابان يفعلون ذلك، لكن أين نحن من اليابانيين؟ إنهم قوم محترمون وأولاد ناس حقيقيون.. مسلمون بلا إسلام كما قال الإمام محمد عبده.

سمع نحنحة.

نظر إلى الخلف فرأى ذلك الرجل الغامض الذي يظهر في المنطقة كثيرًا هذه الأيام.

ـ صباح الفل.

واتجه الرجل إلى المقعد الخالي فجلس ونزع عويناته وأراح ظهره:

ـ أريد حلاقة ذقني.

سعل مصطفى المزين وبصق.. ثم أخرج الطبق المعدني الذي يقلبون فيه الصابون وبدأ يسن الموسى.. توقع أن يتساءل الرجل عن التعقيم أو الأشعة فوق البنفسجية ليلعن أباه، لكن الرجل التزم الصمت.

ساد صمت ثقيل.. لا يقطعه سوى صوت الموسى.

قال عصام وهو مغمض العينين:

ـ هنا من زمن يا عم....؟

ـ مصطفى.

ثم باقتضاب أردف مصطفى:

ـ من زمن.

يا لهذه الإجابات الحادة الباترة كالسيف.. تقطع حبل الكلام تمامًا.

ـ ربنا يديك الصحة.

ثم فتح عصام عينيه ببطء... رأى في المرآة تلك الفتاة، عفاف، تمشي بسرعة خارجة من محل الكوافير.. فسأل في خبث:

ـ ما شاء الله.. هل هذه الحلوة تعمل عند الكوافير أم هي زبونة؟

قال مصطفى في ضيق:

ـ تعمل.

ـ بيني وبينك في زمن التلوث والطعام المغشوش هذا، ينبغي للمرء ألَّا يتزوج إلَّا فتاة كهذه.. إن تأثيرها سحري قادر على قهر التلوث والفراخ البيضاء.. هه هه.

ثم ندم على هذا الكلام.. الحلاق المسن متشكك، وهذا الكلام يوحي بأن عصام يريد معرفة المزيد عن الفتاة، وهو ما سيجعل الحلاق يحتد.. نحن لا نمارس هذه المهنة يا أستاذ.. هناك من يمارسونها فابحث عنهم.

لكن الحلاق قال وهو متجهم كما كان:

ـ الفياجرا.

ما المناسبة؟ هل هي سيرة الفتاة الفائرة؟ أم أنه كان يفكر في شيء آخر؟ أم ماذا؟ الفياجرا.. لا تعرف هل يمتدحها، أم ينتقدها، أم يتسلى بذكر اسمها، أم يخشى أن يكون قد نسي الاسم ويجرب ذاكرته.

ثم راح يفكر قليلًا وهو يسن نصل الموسى.. وقال:

ـ هناك «السياليس».. وهناك دواء اسمه «ليفيترا».. جبار فعلًا. هناك كذلك حلول غريبة.. البعض يغلي أوراق النبق.. وهناك من يستخدمون جوزة الطيب.. عندي زبون لم يعد يصل إلى النشوة إلا لو أغرق كلابًا صغيرة في الماء!

هبَّ عصام مذهولًا حتى كاد يقطع رقبته بالنصل. هذا آخر حوار توقع أن يسمعه.. ما علاقة الكلاب الصغيرة بالنشوة؟

قال الحلاق من دون أن يهتز وجهه لحظة:

ـ هكذا.. يضع كلابًا صغيرة في جوال ويغلقه عليها ثم يذهب إلى النهر ويسقط الجوال بما فيه.. يقول إن هذا يعيد رجولته!

كانت الإجابة سهلة.. الضعف الجنسي قد لا يستجيب إلا مع السادية المفرطة. هكذا يحدث للسفاحين في الخارج، وعصام قد قرأ قصة السفاح «تيد بوندي» جيدًا. بل إن تعذيب الحيوان من النذر المخيفة التي تُنبِئ بأن ابنك سيكون سفاحًا، لكن هذا لا ينطبق على شارع النوساني و«دحديرة الشناوي».

ثم إن الحصول على النشوة بقتل الكلاب ليس مصدرًا متاحًا، وليس سهلًا.. إنه كمن يدخن الأبخرة المتصاعدة من البراكين من أجل عمل دماغ.. معنى ذلك أن الرجل لا يظفر بالنشوة إلا مرة كل خمسين عامًا!

ـ هل... هل هو زبون عندك؟

ـ لا.

قالها الحلاق وقد شعر بأنه تكلم كثيرًا.

في هذه اللحظة بالضبط ظهر جمال الفقي على الباب.. تمطى وتثاءب ثم أصلح من وضع قميصه داخل السروال وقال للحلاق المسن:

ـ ذقني يا مصطفى.

ثم أخرج لفافة تبغ من علبة مكرمشة...

في اللحظة ذاتها كان الحلاق قد مسح وجه عصام وغسله وجففه، ثم وضع له البودرة وأنهضه.. فلو استطاع أن يرفض الأجر لفعل.. كل ما يريده هو أن يرحل هذا الأحمق قبل أن يقول كلمة ما.

قال عصام وهو يتحسس جيبه ليخرج المال:

ـ هذا الذي يغرق الكـ....

قال عم مصطفى بسرعة وهو يقتاده للباب:

ـ فيما بعد.. فيما بعد.. أنا متعجل فعلًا.

وتناول المال فلم ينظر إليه لحظة.

وسرعان ما وجد عصام نفسه في الشارع لا يفهم ما حدث.. والأدهى أن الحلاقة سيئة جدًا.. هناك أجزاء من ذقنه لم تُمس. نظر إلى الخلف في دهشة فرأى جمال الفقي ومصطفى.. الأول في مقعد الحلاقة والثاني يقف خلفه.. كلاهما يرمقه في شك وكراهية.

لقد كانت هذه هزيمة أخرى.

ناضب كبئر منسية منذ قرون.

فشل زواجك.

ماتت قصة حبك.

جفت قريحتك.

تركت وظيفتك.

تبخرت مدخراتك.

شاب شعرك.

الرفاق يعزونك على وفاتك الأليمة.

لكنك ما زلت طفلًا يأبى الاعتراف بأنها النهاية.

٩

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.

جلس عصام يراقب الوجوه وقد عقد ساعديه على صدره.. للحظة بدا كأنه مثقف وجودي من الستينيات، خصوصًا مع أزرار قميصه المغلقة ضاغطة على عنقه، والسيجارة المتدلية من شفتيه.

رائحة الدخان قاتلة.. التنفس حلم شبيه بحلم الجائع بالطعام أو الظمآن بالماء أو الجالس في ندوة كهذه بالهواء.

المقاعد متناثرة في الغرفة الضيقة، والأصوات عالية، والعرق غزير، والنفوس عصبية، والحر خانق، والنساء شهيات، والذباب كثير، والإضاءة واهية، والحذاء ضيق.

اعتاد التردد على هذه الندوات منذ سنين، لكنه على الأرجح لا يخرج بشيء جديد.

ذات مرة رأى ناقدًا شابًّا يتكلم عن منهج جديد للنقد، اسمه «الانطباعية الثورية». راق له الموضوع وأخذ رقم الهاتف.. ثم تكلم عن الانطباعية الثورية مع بعض الأدباء الذين حضروا الندوة فوجد أنهم لا يذكرون حرفًا مما قيل.

اتصل بالناقد يسأله عن قراءات أخرى في منهجه، فوجده قد نسي الندوة ونسي ما قيل فيها ونسي أنه نسي أنه كان هناك.

هكذا بدأ يحضر هذه الندوات وهو لا يتوقع منها الكثير.. هناك دائمًا أزمة ووجوه مدلهمة وتعقيد غير مفهوم.

ـ فلنناقش أزمة المسرح.

ـ هي أزمة نص.

ـ هي أزمة أفكار.

ـ هي أزمة تمويل.

ـ تجربة مسرح الستينيات لن تتكرر.

ـ مسرح القطاع الخاص هو كباريهات تتنكر بشكل محترم.

ـ بعد ألفريد فرج.. انتهى كل شيء.

ـ مسرح الجيب هو الأفضل.

النسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

ـ فلنناقش أزمة الشعر.

ـ الشعراء لا يقولون شيئًا مفهومًا.

ـ الشعر العامي تفوَّق بمراحل على شعر الفصحى.

ـ تجربة تحطيم التفعيلة.

ـ «أدونيس» فعل بالشعر ما فعله «إليوت».

ـ الناس تخاف الشعر.

ـ الشعر يخاف الناس.

ـ قصور الثقافة تدمر الشعر.

النسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

ـ فلنناقش أزمة الأغنية.

ـ لقد مات عبد الوهاب لو لاحظتم هذا.

ـ البعض يحاول أن يتميز.

ـ الشباب هو الذي يحدد الأغنية. وهذا يعني أنه هو القوة الأعظم.

ـ هذه أزمة كلمات.

ـ أزمة أصوات.

ـ أزمة رقابة.

ـ الميكروباص قضى على الغناء في مصر.

ـ الفيديو كليب جعل بوسع الكل أن يغني.

النسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

تقف تلك الشاعرة الشابة التي تلبس بلوزة تكشف عن نصف صدرها مع سروال ضيق.. ملطخة بالمكياج كالهنود الحمر، هستيرية تمامًا تصرخ بعصبية:

ـ الرجل مُصرٌّ على أن يعتبر المرأة وليمة في فراش!

تخيل أنها وليمة في الفراش فشعر بدمه يغلي.. نظر إلى الجالسين وأقسم لنفسه أن هذا العرض الرائع جعلهم جميعًا يفكرون في موضوع الفراش هذا، وقد بدأ يروق لهم. لماذا لبستِ بهذه الطريقة؟ أم هو نوع من الامتحان لهم لتري إن كانوا رجال كهف أم لا؟

لو كان هذا امتحانًا فأنا رسبت فيه، وأقرُّ وأعترف بأنني رجل كهف.. من حُسن حظك أنني على باب الستين.

كان غارقًا في خواطر سوداء لا يمكن التصريح بها هنا، عندما مال عليه مراد صديقه المهندس والأديب:

ـ هناك ثورة قادمة... لا شك في هذا.. الغليان في كل مكان.

كان عصام يؤمن بهذا.. لو تحمل المواطن المصري هذه الذروة فلسوف يتحمل أي شيء بعد ذلك.. تلك الأعوام هي الاختبار الأقسى لأعصابه، فإذا اجتازه بنجاح ـ في نظر الحُكام ـ فهم في أمان إلى الأبد.. يمكنك أن تصفع خادمك يوميًا ويبتلع الإهانة، لكن اقتحام بيته والنيل من امرأته أمر يحتاج إلى تفكير طويل.. فإذا فعلت ذلك وصَمتَ فمعناه أنك سعيد الحظ، وأنه لا خوف عليك أبد الدهر.

كان مراد نحيلًا فارع الطول يطلق الدخان من منخريه، حتى ليذكرك بالأفعوان في أسطورة قديمة.. ثم أضاف:

ـ اليوم قام رجال الأمن بمهاجمة مظاهرة للصحفيات.. لقد مزقوا ثياب الصحفيات وعروهن.

ثم أطلق المزيد من الدخان وقال:

ـ يقوم رجال الشرطة بالتحقيق بطريقة تحطم الأعصاب.. إنهم يأتون بالمرأة ويجردونها.. ثم يربطون يديها خلف ظهرها و...

هنا لاحظ عصام عيني مراد.. كانتا تلمعان وكأنهما اكتستا بجفن رامش شفاف كعيون التماسيح. وبدأ خيط رفيع من اللعاب يسيل على جانب فمه.. كانت يده ترتجف بلفافة التبغ:

ـ يهددون زوجها بأن يغتصبوها أمامه.. ربما نهض الضابط كي يمسك بـ....

أقسم عصام لنفسه أن صديقه يشعر بشهوة بالغة لدى تخيل المشهد. فقط يتظاهر بالرفض وهو يتمنى لو كان بين هؤلاء الضباط.

الحكومة تصفع المواطن وتسرقه وتمتص دمه.. فلماذا لا يجد صاحبه بين مثالبها سوى «إنهم يعرون النساء»؟ لكنه لا يجسر بالطبع على مصارحته بهذا الرأي.. سوف يقول مراد له إن المرأة معناها الشرف، والشرف أهم شيء لدى الإنسان...إلخ.

ابتسم في سره.. الحقيقة أنه لم يلقَ قطُّ مَن يتعامل مع الجنس بشكل متعادل أو ناضج. هناك من يفرط في الاهتمام به.. وهناك من يفرط في نبذه، حتى لتدرك أنه يحلم بالجنس ليلَ نهار.. لا يوجد شخص متعادل.

النسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

في هذا الجو لم يجسر عصام على أن يتلو على الناس سطورًا من روايته القادمة «دحديرة الشناوي».. كان يمقت هذه العناوين التي توحي بأن المكان هو البطل، ويرى أن نجيب محفوظ فاز بلقب ملك تلك العناوين، فأتعب من يأتي بعده. لكن كيف يمكن الكلام عن «دحديرة الشناوي» من دون أن تتكلم عن «دحديرة الشناوي»؟

في هذا النوع من القصص يكون العمل شبه هندسي. صف «دحديرة الشناوي».. صف الشخصيات.. تقريبًا تكون قد انتهيت.

كان قد بدأ في كتابة الرواية وبدت له معقولة.. أقرب إلى

المقدونس. لا بأس به ومنظره جميل.. لكن لا أهمية له، ولا مشكلة لو لم يكن قد وجد في العالم أصلًا. لن يفتقد أحد المقدونس أبدًا.

فقط عندما حدث ما حدث مع عفاف.. قصة الانتحار أمام القطار.. عندئذ فقط أدرك أن بوسعه أن يكتب رواية ممتعة.. يمكن أن تكون أكثر أهمية من المقدونس.. ربما تصير كالسبانخ.

وكان قد تعلَّم ما يكفي كي يقاوم شهوة كتابة رواية ممتعة.. إنه أنضج من ذلك بمراحل.. سوف يكتبها أولًا ثم يحاول جعلها مملة معقدة مرهقة. هذا هو الضمان الوحيد لنجاحها.

هكذا بدأت الصفحات تولد...

لقد كتب حتى هذه اللحظة سبعين صفحة، سوف تكون مائتين عندما تُطبع.. لقد كبر المولود وصار موجودًا وله وزن وحجم.. سيكون من الصعب جدًّا أن تئده وتبدأ من جديد.

لكنه ما زال بحاجة إلى الفهم والاقتراب أكثر من قلب السر.. قلب الدحديرة.

* * *

في هذا الوقت بالضبط فتح إبراهيم عينيه.

كان يشعر بوهن شديد مع ذلك الألم في خصره.

نفس الغرفة الضيقة ونفس الفيل النائم جواره والرائحة الكريهة.

كان قد اعتاد هذا على كل حال. الكوابيس المعقدة التي تصحو

فيها من النوم داخل الكابوس لتجد كابوسًا آخر.. كوابيس متداخلة.

قالت زوجته وهي بين النوم واليقظة:

ـ لا تنسَ أن تتشاجر مع زوج المَرَة عطيات.

لماذا؟ لا يعرف السبب.. هي تريد دمًا بأي شكل.. الغِلُّ والضيق والحرمان.. كل هذا كالبركان ولا بد للبركان من خروج أبخرته بأي شكل.

يلبس ثيابه ثم يغادر الشقة الضيقة.

سوف يصحو من نومه.. سوف يصحو بلا شك.. ولن يكون هناك سلم مهشم الدرجات، متسخ، كريه الرائحة، ولن يكون هناك دجاج تحت كل خطوة من خطواته، ولا بركة مجاري.

على بعد خطوات من البيت فوجئ بشاب نحيل بندبة طويلة على خده يستوقفه.. هذا الطراز من الفتية يفضل البذلة الجينز وله ردفان ضيقان ويلبس شبشبًا له إصبع واحدة... كلهم يأتون من ذات المكان.

بالطبع هذا كابوس لذا من السهل أن يعرف الفتى.. هذا حمادة أخو زوجته في الكابوس.

ـ هيمة.

ـ حمادة.

فارق السن لا يسمح بأن يناديه «هيمة».. لكن الفتى يبدو شرسًا.. كل غابات اللغة من حقه.. يبرطع فيها كما يشاء.

ينظر الفتى إليه.. صوته مبحوح طبعًا لأنه أمضى الليل في الغناء. يعمل في واحدة من تلك الفرق اللعينة التي تزف العريس والعروس.. ينشدون أغاني لا يمكن فهمها، ثم يقضون باقي الليل في إنفاق ما كسبوه على البانجو والبرشام.. ويعود كل منهم إلى بيته لينام كالقتيل حتى العصر ليبدأ من جديد.

قال له حمادة وهو يواصل التأمل:

ـ هل عينك صفراء؟

هزَّ إبراهيم رأسه.. أخيرًا لاحظ أحدهم هذا:

ـ أنا مريض كبد.. ألم أقل هذا؟

لم يعلق حمادة كأنه نسي أنه وجَّه هذا السؤال.. هو بالفعل نسي.. في هذه المرحلة صار خبر أن إبراهيم زوج أخته مصاب بمرض في الكبد معلومة بلا قيمة ولم يطلبها أحد.

ـ لماذا لا تزورنا عند شيحة؟ إنهم يسألون عنك.

ـ أعدك بأن آتي.. الحياة مشاغل.

هنا ظهرت تلك المجموعة من الفتية.. اثنان يحملان الجنازير وواحد يجر كلبًا شرسًا.. نوعه «الراعي الألماني»، لكنهم يصرون على أن نوعه «ويلف».. هكذا ينطقونها.. كان هناك اثنان يمشيان بجذع عار ويحملان السِّنج.. لسبب ما يفضل هؤلاء الشجار بالسنجة وهم عراة الجذع. ربما لتسهيل مهمة من يريد تمزيقهم.

توتر حمادة وأطلق صوتًا حلقيًا:

ـ خ خ خ.. ميدو.. ماذا حدث؟

ـ خناقة.

هناك دائمًا من أهان كرامتهم أو أهانوا هم كرامته.. القبلية هي اسم اللعبة، وهم يتصرفون كما كانت قبائل العرب تفعل في الجاهلية:

شعث مفارقنـــا تغلـي مراجلنـا   نأسـو بأموالنـا آثـــار أيدينـــا

طارت سنجة في الهواء لتستقر في قبضة حمادة، وسرعان ما كان الجمع الغاضب ينطلق لضرب مجموعة ما في مكان ما.. أطحلة كثيرة سوف تنزف اليوم.. أكثر من ارتشاح دموي في الرئتين وأكثر من أنف سيطير.

بعد ربع ثانية كان حمادة قد رحل وهو لا يكف عن الشخير.. سوف نربي أولاد الـ.... لم يكن قد عرف موضوع المشاجرة ولا من سيضرب من.. إنه غاضب دومًا وفي أي لحظة.. لا يحتاج إلى «الأدرينالين»، ولو دنا منه «الأدرينالين» لمزَّق بطنه بالسنجة.

وجد هيمة نفسه وحيدًا في الشارع.

قال لنفسه إن الأمور ليست بهذا السوء.. إخوة زوجته في عالم الواقع لا يجولون في السوق حاملين السنج، ولو آذاها أو ضربها يشقون بطنه.. الأمور ليست بهذا السوء في الواقع.

في عالم الواقع يعمل أخو زوجته عميدًا في الجمرك، وهو يتسلى

أحيانًا بلعب الجولف.. لا يمارس أي رياضة قتالية على كل حال.. إن أخا زوجته وديع ملائكي، وإن كان غامضًا.. هناك أشياء يخفيها عنه.

هو سيعرف.

أما الآن فعليه أن يلحق بالميكروباص ويذهب إلى الورشة.. عندما تحلم عليك الالتزام بالحلم حتى النهاية.

* * *

ارتمى علاء أبو فرحة باكيًا بين ذراعي مصطفى المزين.

راح يهتز، ولوَّث بدموعه خدي الرجل المسن.. شم مصطفى رائحة هي مزيج من البيرة والتبغ والمخللات وربما البول كذلك.

ـ البقية في حياتك.. إنت راجل.

وساعد الفتى على الجلوس فوق مقعد من المقاعد الخشبية الرخيصة التي تناثرت أمام باب البيت، وقد بدأ بعض المعزين يصلون.. واشتعلت السجائر وفاحت رائحة التبغ. ومن مكان ما دوى صوت قراءة للقرآن.. يبدو أن هناك من قام بفتح التلفزيون على إحدى الفضائيات، ورفع الصوت جدًّا.

راح الفتى يهتز بينما مصطفى ينظر إليه بدهشة.

الشيخ ـ أبو الفتى علاء ـ يموت بالفشل الكلوي منذ عامين، فما هي المفاجأة في أن يموت اليوم؟ وما الغريب لهذا الحد؟ لا بد أن يموت يومًا ما على كل حال.

لكنه لم يصارح الفتى بهذا، بل بدأ يضيق خلقًا به، فراح يقول له بطريقة أقرب للصراخ:

ـ اخرس.. ألست رجلًا؟

قلنا إنه ضيق الخُلق على كل حال. ثم بدأ بالتفكير العملي:

ـ هل جلبت مَن يقوم بالغُسل والتكفين؟

ـ نعم. من الجمعية الشرعية.

ـ وأين هو؟

ـ يقوم بالغُسل الآن.

ـ وأنتَ لست معه؟!

واشتعلت عيناه غضبًا.. فقال علاء وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ خالي معه.. لم أتحمَّل المشهد.

نهض مصطفى مسرعًا وشق طريقه وسط صالة ضيقة كريهة الرائحة، وامرأة أو اثنتان تلبسان الأسود وتحمل واحدة منهما قزانًا على رأسها.

فتح الباب ودخل حيث كان الشيخ العاري ممددًا على لوح الغُسل الخشبي العملاق، وقد أقعى جواره الشيخ المكلف بالغُسل، وكانت رائحة عطرية تملأ جو الغرفة.. وكان هناك رجلان يناولانه الماء في كيزان صدئة.

ـ الماء بارد عليه.. أسخنوه قليلًا.

وهي طريقة المصريين المعتادة في افتراض أن المتوفَّى يتضايق من الحر والقر مثلنا بالضبط.

كان مصطفى يعشق هذه اللحظات.. كان يحب كل ما يتعلق بالموت والأكفان والمقابر، ويشعر باستمتاع رهيب.. تقريبًا لم يفوِّت أي جنازة أو غُسل متوفٍّ في المنطقة منذ صار واعيًا يدرك معنى الموت، لكنه أدرك أن كل يوم يمر يجعله أكثر عشقًا للموت وطقوسه.

لم يكن محللًا نفسيًّا، وكان يعتقد أن هذا جهد طيب يجلب له الثواب ـ وهو على الأرجح كذلك ـ لكنه كان يدرك بشكل خفي أن هذه طريقته الخاصة للانتصار على الموت.. ليشعر بالتفوق بأنه ما زال حيًّا... يُذكِّر نفسه طيلة الوقت بأنه حي وأن الآخر ميت.. سوف يعود لصالون الحلاقة ويتناول الغداء، بينما سينزل هذا الآخر التعس إلى أعماق الأرض وتخضر بطنه وتنتفخ ثم تلتهمه الديدان.

لم يأكل الغداء بشهية قطُّ مثلما فعل وهو عائد من المدافن.

لم يستنشق الهواء باستمتاع قطُّ كما يستنشقه بعد غبار المقابر.

لم يشعر بتعب لذيذ يدغدغ عضلاته كما يشعر عندما يفرغ من حفر قبر.

لا بد أن يقوم بدخول القبر، ولا بد أن يتعاون مع اللحاد على إراحة الجسد في مكانه، ثم يخرج وهو يسعل وينفض الغبار عن

يديه ويساعد في إغلاق الفتحة بالأسمنت مع الرمل.. رائحة الرمل المبلل والقصعة ودلو الماء.

لا بد أن يقف مع المعزين ويوجه لكمة قوية لابن المتوفَّى لأنه يريد الوقوف جوار القبر:

ـ لا تقف هنا.. لا تكن طفلًا.. الرجال ينتظرون.. الله!

يقولها بعصبيته المعتادة وقد برزت أوردة عنقه وتطاير اللعاب من فمه وراحت يده ترتجف.

ثم بعد هذا هو يستمتع جدًّا بالجلوس في العزاء، وخصوصًا لو كان هناك مقرئ.. أعذب أوقات تسمع فيها التلاوة هي عندما تكون هناك وفاة، وعندما يضع المقرئ في صوته كل شجن يقدر عليه.. يصغي ويمصمص شفتيه ويتصعب في انتشاء حقيقي كامل.

أما الحديث عن المقابر والحوش والنباتات التي تزرع جوار القبر، وقطعة الرخام المزخرفة التي ستكون شاهد قبر.. فهذا موضوع غاية في الإمتاع بالنسبة إليه.. وكانت مهنته كحلاق تتيح له سماع الكثير منه.

سمعوا جلبة خلف المقابر مع نباح كلب. لم يهتم كثيرًا، لكن أحد الواقفين قال: إنها خناقة بين الشباب خلف المقابر.. شلة ميدو تتشاجر مع شلة عباس.. يبدو أن أحدهم عاكس أخت حسن.. هناك كلبة شرسة وهناك مشاجرة بالسنج. سمعوا صوتًا غليظًا يأمر العصابتين بالرحيل والشجار في مكان آخر.. تهامس البعض:

- حماصة.. حماصة!

مستحيل أن يكون هذا صوت حماصة.. لقد كف حماصة عن الظهور منذ زمن، لكن لو لم يكن هو فكيف ابتعد الفتية صاغرين؟

اعتاد مصطفى أن يجلس في العزاء فيرمق الناس من حوله. كلهم صامت مكفهر يصغي إلى التلاوة ويتصعب.. هنا يتخيل هذه الوجوه مكفنة جميعًا وقد ربطت الفكوك بالضمادات.. «تلتيم».. هذا هو الوصف الدقيق.

هذا الولع الجنوني بالموت كان يسعده.. لكنه كذلك كان يشعره بأنه رجل شفاف طيب.. وقد اشترى لنفسه كفنًا منذ زمن وراح يتحسسه من حين إلى آخر في وله وشغف.. لسبب ما كان يعتبر هذا طقسًا إيمانيًا.

كان علاء يبكي بلا توقف وهو جالس على ذلك المقعد الخشبي المتداعي في الخلاء.

يحاول تذكُّر كلمات أبيه وصوته وسعاله.. المسكين لم يكن يتبول.. بدا له هذا قاسيًا جدًّا.. التبول هو متعة الحياة الكبرى. كانت الوفاة تعني أن علاء قد تخلص من طن من الهموم والمسؤوليات، لكنه كذلك سوف يفتقد الشيخ فعلًا. شعر بأن الحاجة إلى البيرة توشك على تمزيقه.. لا يستطيع أن يصبر حتى الليل وسط هذا الحصار.

بعد قليل جاء ذلك الرجل الغامض الذي يقول إن اسمه عصام..

صافحه في حرارة معزيًا ثم جلس متظاهرًا بالحزن.. رجل غريب جدًا...

جاء حسين عبد الرحمن ليصافحه ويلثم خده ثم جلس جواره.. بعد قليل ظهر عباس الدلجموني وجلس على مقعد قريب. لا يعرف لماذا توتر الفتى حسين قليلًا، ثم نهض ليجلس جوار عباس ويتبادلا حديثًا هامسًا.. من الواضح أن عباس يؤكد أن الشيء ليس معه.. ما هو الشيء؟ هل الفتى يتعاطى المخدرات؟

من بعيد مرَّت تلك الفتاة الفارعة الرشيقة التي يراها من وقت إلى آخر. يعرف أنها تعمل في محل طُرح في شارع النوساني. مغرية جدًّا ولها جسم لا يوصف. لكن عليه أن يتماسك وإلا تفلت منه نظرة تفسد جلال مأتم أبيه.

ـ وحّدوه!

قالها وهو يطرق للأرض ثم أخرج علبة السجائر، وهزها بحيث برزت منها سيجارة كأنها مسدس، ثم نهض يدور بين صفوف المعزين وقد رسم على وجهه لمسة خطورة واستغراق كأنه يهددهم بهذا المسدس، أو كأنه يقوم بمهمة خطرة جدًّا. وكان يفكر في ثلاثة أشياء الآن: التبول والبيرة ومؤخرة الفتاة.

١٠

الدجاجة محقونة بالماء.

لن تنال الشقة.

لا عمولة لدى شركة الإعلانات.

فاتورة الكهرباء مغلوطة.

عداد المياه لا يعمل ومع هذا تدفع لهم مبالغ باهظة.

لم تبع شيئًا وما بعته لم تحصل على عمولتك عنه.

المواصلات على حسابك.

الكشافات الصينية تالفة كلها.

شركة الأمن لم تقبلك.

تعرف ما ستفعله.. سوف تقتل...

* * *

قام عبد الظاهر بوضع الطبقة الجديدة من الدهان.. ورج العلبة مرتين ليتأكد من أنها صارت فارغة وأنه اعتصر آخر قطرات بها.. *فس س س س!*

ثم راح يتأمل ما قام به في رضا.. لون أسود لامع جميل.

* * *

كان عباس واقفًا عند عربة الفول، وهو يهشم بصلة بقبضة يده.. تناول رغيفين حكهما بعضهما مع بعض ليُسقط الردة، ثم راح يلتهم من طبقه المعدني بلقيمات عملاقة.

شعر بأن هناك من يراقبه فاستدار للخلف. لقد نسي موضوع المخبرين هذا منذ زمن.. نسي أن من يبيع المخدرات يلفت النظر، ويكون رجال من الحكومة مكلفين بمراقبته.. لقد انعقدت بينه وبين هؤلاء القوم صداقة يصعب أن تفسخ.

لكنه لما نظر إلى الخلف وجد ذلك الفتى، حسين. قبل أن يقول شيئًا اتجه الفتى ليقف جواره ويطلب طبقًا من الفول. وضع حقيبته التي لا يبيع منها شيئًا بين ساقيه وانحنى يلتهم الفول في شغف.

ـ هل تذكَّرتني؟

مضغ عباس ما كان في فمه، ثم ألقى بقطعة بصل وقال:

ـ صعب.

لم يكن يتكلم عن التذكُّر، بل يتكلم عن السلاح. وتناول الكوز المعدني المليء بالماء فجرع عدة جرعات.

ـ أي صعوبة؟ بالتأكيد حماصة عنده.

ـ سوف يُكلِّفُك.. لاحظ أنك أبله وسوف تقع في يد الحكومة، وسوف يكون أول ما تقول هو أنك حصلت على السلاح مني.

ـ لن أتكلم.

ـ كلهم يقول هذا حتى يتلقَّوا أول صفعة أو يعلقوهم على العروسة.

ـ لن أعيش حتى يقبضوا عليَّ.

ـ كلهم يقول هذا لكنهم لا يموتون.

قال حسين كالحالم:

ـ سوف تكون جريمة عنيفة جدًّا صادمة جدًّا.. سوف يفرغ فيَّ رجال الشرطة طلقات مسدساتهم في مزيج من الصدمة والخوف والغل، ثم بعد هذا سوف يلتفون حولي ويركلونني حتى أموت، ولسوف يتهشم وجهي.

ـ أنت إذن تنتحر يا صاحبي.. فلماذا لا تثب في النيل وكفى الله المؤمنين...؟

ـ لن أموت من دون أن أصحب أحد الكلاب معي.. وبعدها لن يعرفوا من أين جاء السلاح... ثق يا صاحبي أنه ما لم توجد علامة على السلاح فلن يقدروا على شيء.

مسح عباس فمه ونظر إليه في دهشة:

ـ هل لا بد أن يراك رجال الشرطة؟

لم يُرد حسين أن يخبره بخطته.. لو أخبره بها لأحجم. يريد قتل المحافظ أو رئيس الحي أو... أو... هذا سيخيف الرجل. الفكرة هنا أن احتمال أن ينشب قتال مع الحراسة أمر وارد جدًّا.

ـ السلاح سوف يُكلِّفُك.. كثيرًا...

ـ سوف أدفع ما تريد.

ثم أضاف حسين وهو يلتهم لقمة أخرى:

ـ أريد كذلك أن تعلمني استخدامه.

ـ ما شاء الله.. سوف تورطنا في قضية إرهاب كذلك.

ـ سوف أدفع ثمن كل شيء.

نظر إليه عباس في شك محاولًا فهم حقيقته.. ثم قرر أن يجرب حظه...

* * *

من جديد وقف عصام أمام الجدار.

لقد اكتسب قيمة جنائزية ومعنوية مخيفة مع الوقت، خصوصًا كلما تذكر أنها آخر كلمة خطتها الفتاة... نفس القيمة المعنوية لأحد جدران معبد الكرنك أو حائط تلطَّخ بالدم بعد مذبحة القلعة.. بالنسبة إليه على الأقل.. بل هذا الجدار أكثر طرافة.

بالتأكيد لا يوجد نقش واحد على جدران الكرنك حفره صاحبه قبل أن ينتحر أمام قطار.

آخر حرف سين كتبتْه.. لو كان هذا حرف سين حقًّا.

آخر حرف نون كتبتْه.. لو كان هذا حرف نون حقًّا.

آخر حرف جيم كتبتْه.. لو كان هذا حرف جيم حقًّا.

آخر حرف تاء مربوطة كتبتْه.. لو كان هذا حرف تاء مربوطة حقًّا.

سين كما في سماء.. كما في سجن.. كما في سلوى.. كما في سحاب.. كما في سراب.

نون كما في نهر.. كما في نشوة.. كما في نرجس... كما في نوة.

جيم كما في جزيرة.. كما في جدول.. كما في جندول.. كما في جمرات.

تاء مربوطة كما في حرية.. كما في حقيقة.. كما في فتاة.

ولكن.. هل هذه هي الحروف حقًّا؟ ما زال يتساءل إن كانت الكلمة هي «السنجة» أم «السيجة».. وكأن الفتاة حرصت على أن تجعل الكلمة لغزًا.. لم تُرد أن تكشف عن أسرار ذاتها أكثر.

ارتجف.. وللحظة خطر له أن الكلمة المكتوبة هي «السرنجة».

لكن لا.. لا معنى لهذه اللفظة أبدًا... ماذا تعرفه عفاف عن السرنجة؟

* * *

في الكافتيريا رصت بعض مقاعد ومناضد بالخارج، وكوب الماء الذي التفت فيه منشفة ورقية، يحاول جاهدًا أن يبقي الشرشف في موضعه فلا يطير مع الأنسام.

يضع عصام ساقًا على ساق ويسحب نفسًا آخر من الشيشة. صوت القرقرة.. الرائحة العطرة.. الوهج.

السرنجة.. ربما هي السرنجة.. لكن لا بد أن يعرف علاقتها بالقصة.

يحب تلك اللحظة التي يمسك فيها بالمبسم في حنكة متظاهرًا بأنه خبر العالم ومحنك في كل شيء. لم يعد قادرًا على عمل هذا بضمير مستريح لأنه قرأ «فرويد» ويعرف ما قد يقوله عن هذا المشهد بدلالته القضيبية.. ربما هو يعوض إحساسه بالنقص والتدني بهذا الشكل.. لا يدري حقًّا.

ضيّق من عينيه وهو يراقب حلقات الدخان.

سمع الصوت:

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

رفع عينيه بحذر فرآها تتجه لأحد مدخني الشيشة الآخرين.. نوال كالعادة. رجل الشيشة الآخر يمسك بقطعة فحم بأنامله ويشعل بها سيجارتها.. تُقرب طرف اللفافة من دون أن تبعد عينيها عنه، ثم تدور كلمات هامسة.. هذا رزقها هذه الليلة.

كان عصام يتساءل في دهشة عما يجذب هؤلاء القوم لها؟ ألا يعرفون أنها تصاب بالإسهال وتقيء على البساط؟ شيء مقزز سوف يظل يذكره ما عاش.

لكنها بائسة.. بائسة..

الدعارة ـ خطر له ـ نشاط بشري شديد التخلف.. أن يقف الجائع ممسكًا بسكين ويقطع قطعًا من جسده يزنها لك ويتقاضى ثمنها.. هذا تقريبًا ما يحدث هنا.

استدار حتى لا يراها.. هنا وجد نفسه يحملق في عيني حسين عبد الرحمن.. الشاب الأسمر النحيل لكنه مفتول العضلات، ذي الشعر الأكرت المجعد الذي يأبى أن ينام بأي ثمن.. يبدو مثالًا لبيت شعر يقول:

حتى كأني حائط كُتب عليه   ها هنا أيها المزنوق طرطر

يعرف هذا الفتى من عدة أماكن.. إنه يحمل تلك الحقيبة، يدور بها على المقاهي محاولًا خداع أحد. النشاط الذي صار سمة للشباب في عصر مبارك:

ـ سعادتك أنا أحمل هنا بعض العروض من الصين.. هل تسمح بأن أريها لك؟

هزَّ رأسه أن لا.. وكان هذا كافيًا كي يفتح الشاب الحقيبة ويُخرج مجموعة من الاختراعات العجيبة: مسبحة تضيء في الظلام.. آلة الخياطة الشبيهة بالدباسة.. صغيرة جدًّا وتريحك في

السفر.. مصابيح يكفي أن تلقيها على الأرض لتضيء.. ماكينات حلاقة صينية تتميز بأنها لا تحلق أبدًا.. ولو لمرَّة واحدة.. بطاريات جافة انتهى زمن صلاحيتها.. أقلام ليس فيها نقطة من الحبر.. ثم عرض العطور.. ثلاث زجاجات بعشرين جنيهًا.. يا بلاش؟ أما زلت مترددًا؟ إذن أربع زجاجات.. لا يمكن التخفيض أكثر من هذا.. خمس زجاجات ومعها المسبحة هدية مني لك.. هذا نصر مبين.. سوف ترتجف زوجتك بالنشوة عندما تكتشف كم أنت بارع رائع.

ـ أنا مطلق.

ـ إذن سوف تعثر على زوجتك القادمة بهذا العطر.

لا يعرف لماذا ولا متى أخرج عشرين جنيهًا من جيبه. لسبب ما شعر بأنه يريد أن يُنصب عليه. هذا الفتى يستحق ما هو أفضل.. من حقه أن يجد من يخدعه.. أنا هو ذلك الأحمق...

هزَّ الفتى رأسه محييًا وعاد يكرر عروضه فأوقفه عصام بإشارة من يده وهو يمتص الدخان.

هكذا حمل حاجياته وانصرف.

مد عصام يده إلى زجاجة عطر.. «ديكورابان».. طبعًا.. الاسم التقليد وبالطبع لا بد من أن تكون.. *فس س س س!* بالفعل. هذا ماء قراح بلا ذرة عطر فيه.. بلا مبالغة هو أنقى ماء يمكن أن تجده هذه الأيام.. يجب أن يصدِّروه إلى الدول التي تعاني الجفاف.

أنهى الشيشة ثم نهض تاركًا الزجاجات الخمس لصاحب النصيب، ودس المسبحة في جيبه.

السرنجة... ماذا عن السرنجة؟

* * *

«الولد سيموت».

قالها عباس وهو يسند رأس الفتى الذي جلس جواره في التوك توك. كان الفتى بلبل ابن أم بلبل ينظر إلى العالم بعينين زجاجيتين بينما رأسه حر سائب.. كأنه فُصل بسكين عن عنقه.. بالطبع افترضت المطبات أن رأسه كرة قدم وراحت تلهو به.

هذه مشكلة «الترامادول» المغشوش. أحيانًا لا يتحمَّله الناس، وهو كان قد قدَّم إلى الفتى شريطًا ثم أشعل له سيجارة محشوة.. يبدو أن الفتى لا يتعاطى سوى البانجو فعلًا.. قالها له ولم يصدق.

هرع صلاح إلى التوك توك حاملًا علبة من الكشري وملعقة.

ـ اجعله يأكل.. الأكل سوف يطرد السم.

ثم أخرج كيسًا من اللبن، وناوله لعباس:

ـ اجعله يشرب هذا الكيس بالكامل.

أخرجا الفتى من التوك توك وأسنداه إلى شجرة عجوز قريبة، جوارها زير ماء. أسندا رأسه إلى الجذع وراح عباس يدس ملاعق الكشري بين شفتيه وهو يردد:

ـ كُل.. كُل.. سيطرد السم.

بينما بلبل يردد بصوت مبحوح كلمة ما:

ـ شطة.. شطة...

يريد شطة على الكشري! أصغى عباس إلى الكلام ثم شتمه بصوت عالٍ.. هل تستمتع بالطعام يا ابن الكلب؟ هل هذا وقته؟ هل هذا مزاج؟ هذا علاج يا حيلتها.. علاج لهذه المصيبة التي في داخلك.

الحقيقة أن بلبل كان يراقب شخصًا يشبهه ويحمل اسمه.. يراه من الخارج ويصدر إليه التعليمات.. حرك رأسك.. افتح فمك.. كُل.. افتح عينيك.

هنا مال رأس بلبل وتقيأ بعنف وقوة.. بينما عباس يبدي استحسانه.. جدع.. هذه علامة طيبة.

لقد أراد أن يرفه عن الفتى الذي مات عمه، لكن من الواضح أن الأسرة ستفقد اثنين من رجالها في وقت قصير.. وآخر شيء يريده هو أن يقال إن الفتى مات بسبب جرعة أعطاها له عباس.. أم بلبل فضيحة متنقلة أصلًا.. سوف تخبر الجميع وتبور بضاعته ولن يغفر له حماصة ذلك. لو كان مثقفًا لقال إن هذا مُضرٌّ للبيزنس.. ألا لعنة الله على «الترامادول» المغشوش.. تبًّا للصينيين.

نهض الفتى وهو يردد:

ـ بول.. مثانة... بول.

ثم أصدر التعليمات لجسده كي يدور حول الشجرة، وأسند رأسه لخشبها.. هيا تبوَّل.. آمرك بأن تتبوَّل.. هكذا راح يفرغ المثانة.. يتبوَّل بوفرة لفترة بدا أنها مستمرة إلى الأبد، الأمر الذي رأى صلاح أنه علامة طيبة.. كل شيء يخرج من جسد الفتى يغسل السم على كل حال.

عندما انتهى الفتى من التبول بعد ٤٣ سنة، كان قد تحسَّن جدًّا.. شعر بأنه تخلَّص من السم فعلًا...

عاد ليسقط جوار الشجرة فأجلسه عباس بالقوة وأرغمه على شرب كمية وافرة من كيس اللبن.. فتح عينيه قليلًا فقال صلاح:

ـ هل ترى؟ السم يخرج من دمه.. اشرب.. اشرب.

بالقوة أرغما بلبل على شرب الكيس كله.. تجشَّأ وأراح رأسه على الشجرة الحنون وراح في نعاس عميق.

ـ سوف يفيق بعد ثلاث ساعات...

صلاح يعرف كل شيء عن «الترامادول» المغشوش.. جلس القرفصاء وأخرج لفافة تبغ وناول صاحبه أخرى وأشعلها. تصاعد الدخان بكثافة فأزال الروائح العضوية القوية من المكان.

ـ ربما كان من حُسن حظه لو مات.

ـ لماذا؟

لم يرد صلاح.

ثم تساءل وهو يتأمل وهج اللفافة:

ـ هل تعرف أين يوجد حماصة اليوم؟

١١

ساعة الغداء.

هذا هو الوقت الذي يتزايد فيه القيظ وتخلو الشوارع من المارة. هنا فقط تنزع عفاف الشبشب وتجلس وراء الكاونتر في محل الإيشاربات.

هناك مَن يقول إنها تجلس على مقعد خالٍ عند الكوافير الذي تعمل عنده.

هناك مَن يقول إنها تجلس وسط أقفاص الدجاج وتنظف يديها من الدم الجاف.

هناك مَن يقول إنها تجلس خلف النول في المشغل.

وهناك مَن يقول إنها تدخل الحمَّام لتأخذ دشًّا ينظفها من قذارة الزناة تأهبًا للزبائن القادمين.. ثم تشعل سيجارة مرهقة...

هنا فقط تجلس عفاف.. تراقب العالم في شرود.

تلوك قطعة من اللادن.. تبدأ بهدوء ثم تتمرد عليها عضلتها الماضغة.. تبدأ في إخراج الغل والتوتر فتفرقع بلا توقف.. كراك.. كراك.

صاحب المحل ليس هنا، وهو قد لامها أكثر من مرة على هذا الصوت العالي، وقال لها إنها تُحدث ضوضاء شبيهة بصوت صرصار الغيط.

كانت تعرف أنه يشتهيها جدًّا.. لكنها لم تفهم لماذا يكرهها؟ هي لا تستطيع فهم هذه العلاقة المعقدة.. أن تكره إنسانًا لأنه يظهر ضعفك أمام نفسك.

تنظر إلى مروة زميلتها وتقول:

ـ أنت من سيجلب الكشري من عوكل اليوم.

مروة ليست على ما يرام.. مروة مكتئبة صموت.. مروة نحيلة قبيحة كأنها سحلية سقيمة. مروة تكره الحياة.. مروة ترفض الذهاب إلى عوكل.. مروة لن تجلب الكشري.

ـ لا أريد الغداء اليوم يا عفاف.

عفاف نهمة وتحب الطعام.. في هذه اللحظة من اليوم تشعر أن من حقها أن تملأ معدتها قليلًا بعدما غابت الطعمية التي التهمتها في الصباح. لطالما قال لها الشباب إنهم مندهشون لأن الطعمية والكشري يتحولان في بطنها إلى هذا الجمال.. إنها تستخرج أعظم آيات الأنوثة من طعام رخيص لا يستخرج منه الآخرون سوى غازات بطن وكروش.

- ليه كفى الله الشر؟

لكنها تعرف.

هذه الهالات السوداء حول عيني الفتاة.. هذا اللون الشاحب الكالح.

لم تصمم على السؤال أكثر.. نهضت.. دست قدمها في الشبشب وتناولت زجاجة الماء البلاستيكية. سوف تملؤها من السبيل الموجود جوار المسجد. انحنت برأسها كي تمر بين الطُّرح المعلقة ذات الألوان الزاهية الفاضحة.. يصعب أن توجد فتاة لا تضع ثلاثة إيشاربات فوق بعضها اليوم. الطُّرح التي تمثل الحجاب الحديث ذا الترتر والذي يدغدغ في الرجال ذكريات عصر الجواري. اتجهت وهي تجر قدميها في الحر القائظ إلى محل الكشري الذي يقع على بعد عشرين مترًا.

فس س س س!

يدنو منها ذلك الرجل الغامض.

يبتسم عصام لها.

بالطبع لا يدخل المحل عندها لأنه لن يبتاع الطُّرح، لكنها تعرفه.. يلاحقها في كل مكان.. نظرات إعجاب لا شك فيها، وهو ليس قبيحًا.. صحيح أنه متقدم في السن نوعًا لكنه وسيم ومستريح كما هو واضح. هي فتاة ذكية لهذا تعرف جيدًا أن عليها أن تفر منه فرارها من الأسد.. فقيرة هي وتعرف هدفه بالضبط.. لا شيء فيه يحرك أنوثتها.. لا شيء يمكن الحصول عليه مع أفندي كهذا. هو يريد أن

يعبث.. لا شك في هذا. وهي لا تريد العبث ولو أرادته لوجدت مَن هو أفضل منه.

يقف ليبتاع علبة كشري وهو لا يفارقها بعينه.

ترسم على وجهها ذلك التعبير المعتاد.. تعبير «لم ـ أتوقع ـ أن ـ يكون ـ الأمر ـ بهذا ـ السوء» الذي يخلب عقل الرجال كما تعرف وتطلب من عماد علبتي كشري.. أنت تعرف طلبي.. تنظر من جديد إلى هذا الأحمق المنبهر.

هلم يا أخي.. لو كنت أعجبك إلى هذا الحد فلتتكلم وتطلب يدي.. هلم أبعدني عن محل الطُّرح وعن «دحديرة الشناوي» وكل هذا الوحل.. لكنك تريد أن تتسلى فقط.. نفعه الوحيد هو الزواج.. لو لم يرد الزواج فلا لزوم له.. المشكلة أنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يمكن أن يكون فاتنًا بلا زواج.. تلك مشكلتها مع الرجال.

تأخذ علبتَي الكشري في كيس مع ملعقتين من بلاستيك.. تطالب بحقها في كيسين إضافيين من الشطة والصلصة.. تنظر إليه نظرة أخيرة.

يتظاهر عصام بأنه لم يكن يلتهمها بعينيه منذ دقيقة.. يشب ليطلب من البائع طبقًا من الكشري.. كالعادة في كل شيء في مصر هناك العادة والسوبر والمخصوص.. وربما هناك الشبح كذلك.

تعود حاملة غنيمتها عبر الشارع الحار شبه الخالي من المارة.. ملأت الزجاجة البلاستيكية من السبيل ثم اتجهت إلى المحل.

* * *

عبد الظاهر وضع طبقة أخرى من الدهان.. صار اللون الأسود متجانسًا.. *فس س س س!*

هكذا يكون العمل...

* * *

تشق عفاف طريقها وسط الطُّرح المعلَّقة ثم تتخذ مقعدًا خشبيًّا صغيرًا جوار صاحبتها مروة:

ـ كُلي.. كُلي.

ليست الدورة الشهرية فهي تعرف موعدها.. صاحبتها ليست على ما يرام فعلًا.

تسكب الصلصة على الكشري ثم تفتح بأسنانها كيس الشطة وتسكب بعضها عليه، ثم تناول العلبة مع ملعقة بلاستيكية لصاحبتها.

ـ كُلي.. سأعد لك شايًا.

مروة تنظر إلى الطعام في قرف ثم تنهض.. تتجه إلى الحقيبة الرخيصة التي تضعها على الكاونتر. تُخرج شيئًا.

ـ أريدك في المخزن الخلفي.

ثم تنهض.. هناك مخزن خلفي للمتجر. غرفة بحجم كشك سجائر ضيق، تعج بالفئران، وفيها مصباح واهن يتدلى من السقف. لا توجد دورة مياه، وإنما تقضيان حاجتهما في عيادة الأسنان القريبة. تلحق بها عفاف في المخزن.

مروة تجلس على مقعد خشبي متداعٍ هناك وتكشف عن ساعدها.. ثم تخرج من حقيبتها محقنًا وتناوله لصاحبتها.. ثم تشير إلى الوريد الموجود عند ثنية الساعد.. وترتجف:

ـ هل تستطيعين أن تفرغي المحقن في الوريد؟ هذا ليس صعبًا.

أمسكت عفاف بالسرنجة في يدها وتساءلت في شك:

ـ ما هذا؟

ـ دواء.. أنا مريضة.

ـ ولماذا لا تعطينه لنفسك؟

ـ يدي ترتجف.. لا أستطيع أن أحقن نفسي.. لا تهون عليَّ.

التمعت عينا عفاف:

ـ سوف أنادي غادة من العيادة.. هي تجيد إعطاء الحقن.

ـ لا!

قالتها في حدة ثم هدأت قليلًا وعادت تكرر الطلب:

ـ أريد أن تفعلي ذلك أنت، فأنا لا أجرؤ ولا أريد غريبًا في الموضوع.. الوريد واضح وبارز. لو أدخلت السن قليلًا لصرت داخله.. ليس هذا صعبًا.

انحنت عفاف تتأمل الوريد في ضوء المصباح الواهن.

بيد ترتجف غرست طرف الإبرة في الجلد من فوقه فسمعت

مروة تشهق. رفعت عينيها لها فوجدت أنها تبكي.. تبكي بلا انقطاع.. مستحيل أن يكون في جسم الإنسان كل هذا القدر من الدموع.

عادت تولج الإبرة بقوة أكثر.

هنا خطر لها أن تنظر إلى المحقن.. إنه خالٍ.. لا توجد فيه قطرة من أي سائل.. خالٍ تمامًا.

انتزعت الإبرة بحركة عصبية وهتفت:

ـ هذه السرنجة مليئة بالهواء! لا يوجد فيها شيء آخر.

لم تعلق مروة.. تصاعد الدم لرأس عفاف.. إنها الخدعة إذن.

ـ تعتمدين على أنني بلا أي معرفة في الطب.. وكنت سأقتلك من دون أن أعرف.. تريدين الانتحار بمعونتي يا بنت الكلب.

وألقت بالمحقن على الأرض...

قالت مروة بصوت مبحوح:

ـ خالتي.. خالتي ماتت بهذه الطريقة.. كان خطأ من الممرضة.

ـ وراحت الممرضة في داهية.. الآن تريدين أن ألحق بها.

هنا انفجرت مروة في البكاء.. لم يكن ما غادر عينيها من قبل سوى قطرات من المحيط، أما الآن فهو الانفجار الحقيقي... كانت تمخط وتشهق ويسيل الماء من عينيها وفمها وطاقتي أنفها...

ـ أريد أن أموووت!

انتحار هو.. لكنها لا تريد أن يتم بيدها حتى لا تذهب إلى جهنم.. تريد أن تلقي بعفاف في نيران الجحيم لتفتدي نفسها.

وفي اللحظات التالية تكلَّمت مروة كثيرًا.. لكن عفاف لم تهتم بما قيل.. بدا لها مملًّا مبتذلًا إلى حد لا يوصف.

مروة فقيرة. وكل الناس فقراء.

تحيا بلا أمل.. وكل الناس بلا أمل.

هي قبيحة.. وأكثر الناس هم القُبح في صورته الأولى.

هي تحتاج إلى البيت والزوج.. كل الفتيات يحتجن إلى البيت والزوج.

لا أحد يدق الباب.. وكل الفتيات بلا أحد يدق الباب.

زوج أمها يتحرَّش بها.. وكل الفتيات يتحرش بهن أزواج أمهاتهن.

هي انقطعت دورتها الشهرية.. كل الفتيات انقطعت دورتهن.

هي تعرف أن ما خافت منه حدث.. كل الناس يحدث لها ما تخافه «واللي يخاف من عفريت يطلع له».

هي لا تريد الحياة.. ومَن يريد الحياة أصلًا؟

هي لا تريد........ ومن هي أصلًا؟؟

اعتصرت عفاف ساعدها الأعجف في غِلٍّ وهتفت:

ـ فلتذهبي إلى الجحيم يا حبيبتي.. فلتحترقي في جهنم. المهم

ألَّا تجرِّي قدمي معك... وأنا كنت أعتبرك صديقتي!

فس س س س!

هنا سمعت الحاج يتنحنح في الخارج.. لقد تناول الغداء في المطعم القريب. لا بد من سمك وسبيط يوم الأربعاء.. عادته منذ عشرين عامًا.. لقد عاد وهو يبحث الآن عن الفتاتين.

خرجت من الغرفة الخلفية واتجهت في ثقة إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه.

ـ أين مروة؟

قالت وهي تتناول علبة الكشري وتسكب الصلصة عليه:

ـ في المخزن... العادة... لا تستطيع الوقوف.

ابتسم الحاج في فهم وخبث.. كان يجد لذة صارخة في التدخل في هذه الأمور الأنثوية، بل كان يراهن نفسه على مواعيد الدورات الشهرية حسب انتفاخ عيون البنات وذلك الدمل الصغير الذي يظهر ويختفي جوار فمهن. بينما راحت هي تقلب الشطة على الكشري.. لا بد أن ينتفع أحدهم بهذا الطعام مهما كانت الظروف.. الكشري الذي تحوله هي إلى سحر حلال ويحوله الآخرون إلى كروش وغازات بطن.

* * *

القنوط!

* * *

ولكن.. هل الكلمة المكتوبة هي «السرنجة» فعلًا؟

هل ظلت تحمل هذه الذكرى القاسية حتى لحظاتها الأخيرة؟ كأنها أرادت أن تقول إن القطار سيكون سرنجتها الخاصة المليئة بالهواء.

السرنجة.. بالتأكيد هي السرنجة.. عصام كان أحمق عندما حسبها تتكلم عن «السيجة» أو «السنجة».

١٢

جلس إبراهيم أبو غصيبة على الشط يراقب البحر الصافي.

فقط هنا يمكنه أن يرى البحر أزرق كما خلقه الله. من وقت إلى آخر يزحف الموج الرغوي فوق الرمال البيضاء حتى يبلغ أصابع قدميه.. ثم ينحسر ببطء... يشعر بدغدغة لذيذة بين أصابعه، ويراقب الفقاقيع الصغيرة التي تنفجر واحدة تلو أخرى.

يمسك في يده بكوب عصير البرتقال، يراقب طرف السيجارة المتوهج.. السيجارة الخامسة بلا لذة.. هواء البحر اللعين حتى كأن البحر يسحب منه الأنفاس.

كان من الواجب أن يكون في نشوة حقيقية، لكنه لا يشعر بذلك. هناك ألف عمل يريد القيام به، وهو قلق على ما يحدث في المكتب.. قلق على الأسهم.. قلق من شاهين الخبيث.. لا يمكن أن ترتاح لوجود شاهين بحيث تترك له أعمالك.

سمع صوت ناردين تترنم بأغنية فرنسية ما.

لا يفهم ما تقول لأنه أهمل الفرنسية منذ دهور.

يستدير ليراها قادمة من هناك.. لذَّ له أن يتخيلها في ذهنه تمشي بالسرعة البطيئة كما في الأفلام السينمائية، وشعرها يتطاير خلفها.

يحب هذا المايوه الأسود جدًّا.. يجعلها كالحوريات الخارجات من بحار الفيروز، مع أنه لم يرَ واحدة منهن من قبل.

حتى من هنا يرى العينين الزرقاوين الصافيتين.. كانت ناردين اختيارًا موفقًا.. اختيارًا ناجحًا.. صحيح أنه تخلى عن سامية من أجلها لكنه ليس نادمًا.. الأجمل أن لها أخًا في الجمارك.. هذا رجل لا يعرف قيمته الحقيقية.

تقترب أكثر فأكثر.

تنحني عليه وهي تعرف ما يريد بالذات.. يريد أن يلثم أرنبة أنفها، وهي تريد أن يريد ذلك.

تنطبق شفتاه على الأرنبة الدقيقة ثم تهبطان إلى الشفتين.. الشفتين اللتين لو ضغط عليهما أكثر لانفجرتا وأغرقتاه بالرحيق...

ـ يا شقي.

تقولها وهي تمرغ بالرحيق خده الأيمن.. تلثم كل حبة نمت بسبب الحلاقة.. تلثم كل ندبة.. كل تجعيدة تركها زحف الأيام.

ـ يا شقي.

تعرف كيف تدغدغ رجولته بهذه الطريقة.. توحي بأنها أنثى منهارة

ضعيفة لا قبل لها بفحولته. هذا فن تجيده بعض النساء، ومن يُجدنه منهن يسيطرن على أعتى الرجال بكل سهولة.. ابنة الحارة تقول «يا لهوي» والمدللة تقول «يا شقي».

ماء البحر يعبث من جديد بأصابع قدميه.

تهمس في أذنه وهي تريح ردفيها على ركبته اليمنى:

ـ أنت تعرف ما أريد.

يقول بخبث:

ـ أنت تريدين هذا طيلة الوقت.

ـ يا شقي! بل أتكلم عن شقة المقطم.. تعرف أنني أريدها.

هذه طريقة تغيظه فعلًا. إنها نفعية ولا تخفي ذلك لحظة.. من الذكاء أن تنتظر قليلًا ثم تفتح هذا الموضوع. أما أن تبدأ به بهذه السرعة فهي بلهاء لا أكثر.

لثم أذنها وهو يمسك بيدها بين أنامله في رفق:

ـ سوف نتكلم عن هذا فيما بعد.. لا تفسدي اللحظة.

ورشف باقي كوب البرتقال.

فيما بعد وهما في الظلام، وهي تلهث وقد بللها العرق، قال لها شيئًا عن الكابوس الذي يلازمه.. الإفاقة شيء عسير بالفعل.. متى انزلق في الكابوس يشعر أنه للأبد.

أرى نفسي أعيش في منطقة عشوائية لم ترسمها أي خارطة.. وجوه كالحة ضمرت بالفقر والمقت وسوء التغذية والمخدرات.. حتى الهواء رخيص عتيق «مضروب».. هناك يمشي المرض في الطرقات حاملًا سنجة وفي فمه لفافة تبغ محشوة، والويل لمن يجرؤ على اعتراض سبيله.

ضحكت في دلال وقالت شيئًا عن إفراطه في تدخين الحشيش...

ـ الحشيش لا يقدر على خلق عالم معقد كهذا.

هناك زوجة بدينة كريهة الرائحة، وعيال مزعجون يتدلى المخاط من أنوفهم.. هناك حمادة، وعصابات شوارع، وهناك عفاف التي تركب الميكروباص ومزقها القطار.

هناك غرفة ضيقة حارة رائحتها عرق وجوارب.. هناك تلفزيون صورته مهزوزة.. هناك المرض.. هناك شراء اللحم المجمد الذي تدرك من رائحته بوضوح أن صلاحيته انتهت.. لكنك تأكله كأنك تأكل جثة جارك، لأنها الطريقة الوحيدة كي تأكل اللحم مرتين في الأسبوع.

حدَّثها عن هذا كله...

ارتمت جواره وانتثر شعرها على الوسادة وقالت:

ـ يا للهول! إنني أرتجف لتصور هذا.. ولكن من أدراك أن هذا ليس هو الواقع؟ ربما أنت تتخيل الآن... ربما أنا هي الحلم!

ـ لا يمكن أن يكون هناك واقع بتلك القسوة.. وما من حلم بهذا الجمال.

وارتجف لفكرة أن يكون ما يحدث الآن هو الحلم بينما «دحديرة الشناوي» واقع.

....

ـ ما هذا السائل الأحمر؟

أغمض عينيه مرة أخرى وفتحهما.

أدرك أنه على الأرض.

هذا هو المقهى.. المقهى المعتاد.. لقد عاد الكابوس إذن.

أم هو الواقع؟

إنه ملقى على الأرض وجواره بركة من الدم.. دم أحمر بدأ يسودُّ.

إنه عاجز عن الحركة، ويدرك أنه قد أفرغ كل هذا الدم من بطنه. لا يوجد ألم.. لكنه منهك فعلًا كأنه جورب منزوع.

فتح فمه ليتكلم لكن الصوت خرج:

-م م م م!

واهن جدًّا لا يستطيع تكوين حروف كلمة واحدة.

هناك فوضى ومرج، وهناك أقدام كثيرة من حوله.. هناك مَن يصرخ ومَن يصيح أن اطلبوا الإسعاف أو احملوه إلى المستشفى.

هذا عباس وهذا علاء وهذا جمال الفقي ومصطفى المزين.. بلبل ابن أم بلبل يرش وجهه بالماء من سطل كبير.

فهم من الكلام أنه كان جالسًا في المقهى وفجأة قاء كل هذا الدم بلا سبب.. مذاق الصدأ هذا يعرفه.. ذات مرة أصابته قرحة معدة وذاق هذا الطَّعم.

هو يعرف السبب. ألم يقل الطبيب إنه مصاب بسرطان كبد؟ لكن كل هذا يحدث في الكابوس.. يحدث بقوانين الكوابيس...

المشكلة الآن هي أن يفيق ويعود لناردين.. سبحان الله! لقد كان معها في الفراش يشعر بدفئها وبضاضتها، وفجأة نام.. ومع النوم بدأ الكابوس من جديد. ناردين! لا بد أنها قلقة توشك على الجنون.. تراه غارقًا في العرق يتكلم ويصرخ.. لا تستطيع أن تسترجعه.. إنه يقيء دمًا في الحلم وهي ترى ذلك.. لهذا لا تستطيع معاونته.. لو جلبت له الدكتور رامي جارهما فلن يستطيع اختراق جدار الحلم.

لا يعرف متى ولا كيف حمله أقوى الموجودين ـ جمال الفقي ـ بين ذراعيه، وانطلق يركض نحو المستشفى الأميري القريب.. كان هو ينظر إلى السماء. الشمس تحرق عينيه.

الوعي ينسحب منه.. هلم. لا تتركوني أنزلق يا أولاد الكلب.. تمسكوا بي.. أنا أغيييب...

سوف يفيق.. سوف يشعر من جديد بنعومة الفراش.. بنعومة

ناردين.. بمذاق البرتقال.. برائحة البحر.. بطعم الجمبري.. وفر نقودك واشترِ الكومبو.. التوصيل مجانًا...

جمال يركض ومن خلفه ستة.. ثم سبعة.. ثم دستة.. ثم انضم أطفال عديدون إلى الراكضين.. هذا مولد يصعب أن يفوته المرء.. رجل يموت حقًّا.. يا للسعادة! لن ترى هذا في الفضائيات التي تبثها الوصلة.. بالتأكيد أفضل من أداء يوسف وهبي في ذلك الفيلم أو فريد شوقي في تلك التمثيلية...

موكب يعبر قضبان القطار.. من اللاهثين والمغبرين والملوثين بالعرق.

انظري أيتها الشمس... واحد آخر يفرغ روحه من الفم...

الخراطيم.. كيس دم أحمر.

أضواء ممر ساطعة.

ممرضات غير مباليات.. أطباء يصرخون.. فراش متسخ.. لا فراش.

هلم.. هلم.. فليرحل الكابوس.. فلينتهِ من فضلكم.

* * *

وفي التاسعة مساء كفَّ إبراهيم أبو غصيبة عن الحلم.

وحجبت ملاءة بيضاء العالم عنه فلم يعد يخاف.

١٢

قالت لها جدتها ذات يوم إنها كانت تهوى مراقبة الترام في طفولتها. كان الترام يتحسس طريقه كأنه مكفوف ترتجف يده، فيتمسك بالسلك الكهربي المعلَّق، عن طريق ما يطلقون عليه اسم السنجة.

في أيام الثورة، خصوصًا اضطرابات الطلبة.. تلك المشاهد التي تراها في السينما.. عساكر بريطانيون يطلقون الرصاص وطلبة يلبسون السترات والطرابيش.. ولافتات تحمل أسماء مثل «مدرسة السعيدية» وكلام لا ينتهي عن سعد زغلول...

في تلك الأيام كانت الإضرابات تبدأ بتعطيل المواصلات، حيث يتسلَّق أحدهم إلى سقف الترام ويشد السنجة.. هكذا يقف الترام كجثة هامدة بلا حِراك.. تصور أن يحدث هذا في أكثر من ترام.

هكذا كان شد السنجة يعني الثورة.

وكانت عفاف تفكر بقوة في أن تشد سنجتها الخاصة.. ولكن أين هي؟ لو عرفت أين هي لدمرتها ببساطة...

* * *

تشاجر مصطفى المزين بشدة مع جمال الفقي...

السبب؟ لا أحد يذكر السبب. مصطفى المزين ضيق الخُلق، يتشاجر في كل الظروف، وتجحظ عيناه وتبرز أوردة عنقه.. ثم يرتجف في عصبية ويسقط اللعاب من فمه. جمال وقح ووغد ويعرف كيف يستفز مَن أمامه.

ثم انتقل مجال الشتائم إلى الأمهات، وبدا أن أي واحد فيهما لا يحمل احترامًا لأم الآخر ولا لأمه شخصيًّا.

التف بعض أولاد الحلال يحاولون أن يبعدوهما. الشيخ بدا كضبع مُسن غاضب، وخرج من الصالون مواصلًا قذف شتائمه. لكنه بالطبع لم يجرؤ على ذكر كل ما يعرفه. هناك أشياء لو عرف جمال أنه قالها لما عادت لحياته قيمة.

كان بصفته حلاقًا مشروع طبيب غير مؤهل، وكان يعرف بالضبط ما يفعله جمال للوصول إلى الذروة الجنسية أو النشوة باعتباره شبه عنين. وكان بوسعه أن يتكلم بصوت عالٍ.. لكن حتى مصطفى المزين كان يعرف حدودًا.. هكذا اكتفى بسب الأم والأب والملة.

بدا المشهد عبثيًّا.. لا أحد يجرؤ على ضرب مصطفى المُسن.. لو سعلت أمامه بقوة كافية فلربما لفظ أنفاسه الأخيرة، لكن كان

واضحًا أن الأخ جمال لا يحمل ذرة من التعقل، ولعله كان تحت تأثير عقار ما.. بالفعل بدا أنه متأهب لتحطيم رأس الحلاق.

استمر المشهد بضع دقائق.. وفجأة...

استرخت قدما الحلاق من تحته، وتهاوى كأنه كيس فارغ إلى الأرض... جورب منزوع من قدم ميت...

ـ ماذا دهاه؟

ـ هاتوا مقعدًا.

ـ هاتوا كوب ماء.

ـ الله أكبر.

ـ ارفعوا رأسه.

ـ بل اخفضوه.

قالها عصام الذي وقف يرقب المشهد في رعب، لكن أحدًا لم يبالِ بتنفيذ أوامره.

الآن توقف مشهد المشاجرة، وبدا الأمر كأنها لوحة اسمها الاحتضار.. عينا الشيخ بيضاوان ولسانه خارج فمه وثمة رغاوٍ بيضاء تحتشد.. ومن حوله يقف الرجال مطرقين للأرض في رهبة.

ـ إنه... يموت.

ـ السر الإلهي يصعد.

وتحسس أحدهم شريان المعصم فلم يشعر بشيء.. وضع أذنه على القلب فلم يسمع شيئًا.. لا يوجد تنفس أو خفقان قلب.. وأدرك آخر أن بقعة الماء التي تنتشر على مقدمة السروال ليست بسبب الأمطار. من مكان ما برز طالب شريعة ملتحٍ وركع جوار الحلاق المسن، وراح يلقنه الشهادتين.. أعني أنه راح يتلوهما على الرجل الذي تحول إلى كومة ثياب.

كان من الواضح الآن أن عم مصطفى قد مات.

لحق بـ«إبراهيم أبو غصيبة» ابن الدحديرة المنكوبة.

أشعل الرجال الكثير من السجائر على سبيل الحداد، وفي هذه المرَّة لم يستطع أحد أن يطالب جمال الفقي بحمل الشيخ على ذراعيه إلى المستشفى.. هو ما زال يحمل ضغائن ضده.

ـ المستشفى.

ـ نعم.. المستشفى.

كان الوقت يمر وقد أدركوا أن ما سيقومون به غير ذي جدوى.. هم فقط يحاولون إرضاء ضمائرهم.

من مكان ما ظهر علاء أبو فرحة ورائحة المخللات والبيرة تفوح منه، وصرخ في هستيريا كأنه امرأة جزعة:

ـ عم مصطفى ى ى ى!

وراح يبكي، ثم حمل الشيخ بين ذراعيه كأنه طفل وانطلق

يركض ومن حوله الرجال نحو المستشفى... رأس الشيخ يتقافز لأعلى وأسفل ويمينًا ويسارًا كأنه كرة مثبتة للجسد بشكل ما.. شعور عام بالشغف لدى القوم لرؤية ما سيحدث.. الشيخ للمرَّة الأولى يعاين تجربة الموت شخصيًّا، بعدما قضى العمر يتكلم عنه ويتعبد في محرابه ويحرق من أجله البخور.. اليوم يلقاه بنفسه، فهل هو راضٍ؟

أنت تقضي العمر تتغزل في لبنى، وتشرح ملاحتها للناس، وتفسر غرابة طباعها، واليوم تلقى لبنى أخيرًا.. فلا بد أن اللقاء رائع رهيب.

عند باب المستشفى كان الزحام، وكان رجل أمن فظ يأمر الجمع بالتفرق.. وكان الفتى علاء قد بلغ ذروة الإرهاق، ومع ذروة الإرهاق تأتي ذروة العصبية، فصار مستعدًّا للشجار مع أي شخص.. يريد أن يصرخ ويلعن.. يريد إلقاء هذا الحمل.

أخيرًا وجدوا محفة ألقوا فوقها الجسد المسن الضئيل.

لاحظ طالب الشريعة أن حنجرة الفقيد تتحرك.. ولاحظ جمال الفقي الذي جاء مرغمًا أن الرجل يبتلع ريقه.

بعد قليل جاء طبيب شاب تفحص الجثة واستمع إلى القلب، وأمام عيون الجميع كشف عورة الرجل ليدخل قسطرة في مجرى البول، ثم قاس السكر في الدم، ثم طلب من الممرضة أن تعلق محلولًا من «الدكستروز»...

تسرب السائل الشفاف إلى عروق الشيخ.

بعد دقيقة بدأ يبتلع ريقه.

بعد دقيقة بدأ وجهه يختلج.

بعد دقيقة بدأ يطلق السباب البذيء كأنه يستكمل وصلة الشتائم لجمال.

بعد دقيقة فتح عينيه ونهض وهو يسب أمهاتهم جميعًا.

جثم فوقه علاء ليمنع حركته، وتلقى ركلات عديدة في بطنه بينما جمال يكرر:

ـ ابن الـ... رجله في القبر وما زال يشتم أمي!

قال الطبيب في برود:

ـ هو لا يعرف ما يدور من حوله ولا ما يقول.. كانت غيبوبة نقص سكر.

غيبوبة نقص سكر تبدو كالموت بالضبط؟

هذا مثير.

مصطفى المزين لم يلق حبيبته بعد.. لم يعرف.. لم يدن من السر. حسبوه فعلها لكنه عاد قبل أن يجتاز الباب الموصد.. العسس هناك لم يسمحوا له بالدخول.

بالنسبة إلى كثيرين سببَ هذا خيبة أمل لا بأس بها. الرجل مُسن وسيموت. إذن لماذا لا يتم هذا هنا والآن ليظفر كل منهم بقصة مسلية

ينقلها لامرأته؟ أن ينجو الرجل من الموت لقصة جيدة، لكن وفاته قصة أكثر إثارة وإمتاعًا.. فيها كل عناصر الدراما والموعظة مع لمسة قشعريرة لا بأس بها.

لقد عاد مصطفى المزين ضيق الخلق ليشاكس كل أهل الدحديرة، وليحضر كل الجنائز ويشارك في كل طقوس الدفن...

لو كانوا يعرفون «أنوبيس»، إله الدفن الفرعوني، لقالوا إن مصطفى المزين «أنوبيس» آخر.. ابن آوى يحوم حول الموت لكنه لا يموت...

* * *

عفاف كانت تمر قرب صالون الحلاقة عندما رأت الزحام ولم تفهم سببه.. كانت عائدة إلى دكان الكوافير بعدما ابتاعت الغداء لها ولمروة.

فس س س س!

في سن مبكرة جدًّا عرفت عفاف أنها فاتنة.

ربما كان السبب هو تجربة التحرش الأولى مع ذلك البائع في السوق عندما هوت على رأسه بالسنجة، وربما كان توتر أبيها الشديد تجاه كل ما يخصها.. بالنسبة إليه كانت لعنة تمشي على قدمين، وعلى الأرجح لو صار الذبح مباحًا غدًا لكانت هي أولى ضحاياه.. سوف يدفنها ويهدأ باله.. كان شهوانيًّا وكان يشتهي الأنثى بحق، لذا صار جمال عفاف خنجرًا يوميًّا في صدره.. لص البيوت عندما

يصير ثريًّا هو أتعس الناس في بيته الجديد.. يعرف ما يدور بخاطر أولاد الكلب بالخارج.

لما كبرت أكثر بدأت تفهم مواقع قوتها بالضبط، وحرصت على أن تظهرها بدقة وأمانة.

كان لها شعر أكرت خشن له لون الصدأ، لكنها أجادت إخفاءه بالطرحة. كانت تعرف بالفطرة أن الفتاة المصرية استغلت الحجاب بحنكة لتدغدغ في الرجل شهوة الجواري.. هكذا جمعت بين الدنيا والدين.. يمكن أن تُضيِّق من ثيابها ما تريد أو تكشف عما تريد، لكنها في النهاية تضع الحجاب.. والحجاب مدعم بالترتر وفيه بهرجة غير طبيعية.. قد تضيف لهذا جمعًا معقدًا من الثياب.. بنطالًا واسعًا وباديًا ـ وهو اختراع جديد ممتاز يسمح لها بأن تكون عارية من دون أن تكون عارية ـ ومن فوق هذا شيئًا كقميص نوم شفاف..

لا أحد يجسر على الكلام أو الاعتراض.

قد تلبس تنورة طويلة ضيقة تظهر ما تظهر وتشي بما تشي به...

والنتيجة تراها في الشارع.. إنها تحدث انقلابًا وثورة لا شك فيهما.. معظم من يقابلونها يلتفتون ليروها من الخلف. ركاب السيارات ينظرون من النافذة في اشتهاء.. ليتها تركب معهم.

لم يكن وجهها جميلًا بشكل خاص، لكنه من تلك الوجوه المثيرة جنسيًّا التي في ظروف خاصة تبدو حيوانية أقرب إلى الغباء.. طاقة الأنف التي تتسع عندما تضحك وتختلج عندما تنفعل أو تلهث..

هذا الوجه كارثة في حد ذاته لأنه يوحي بمسرات خفية لا تعرف أنت عنها شيئًا.

هذه كانت لحظات سعيدة في حياتها.. تتجمل ثم تخرج لتعذب الشباب طويلًا.. يسرها أن أحدهم لن يشعر براحة حينما يراها.

لم يكن الأمر يتعلق برغبة خبيثة سادية.

الفكرة أنها كانت تدرك أن هذا رصيدها الوحيد في العالم.

هي فقيرة.. فقيرة بشكل مستفز لا يُصدق.

هي غير متعلمة.. لا تفتقر إلى الذكاء لكنها بلا شهادات.

ليس لديها شيء تبيعه سوى هذا الجسد الرائع.. وبالطبع ستبيعه بشكل شرعي.

«الرجالة جاتهم البلا».

كانت هذه كلمتها الدائمة.

يضايقها أنهم حمقى فعلًا... يعتقد كل رجل أنه ما دام ظريفًا يتكلم بعينين مسبلتين ويدخن سجائر أجنبية، فإنه يستطيع الوصول إليها.

كل رجل يتصور أنه قادر على اختراق المعبد العظيم ليسرق الزمردة ويفر.

كل رجل يحسب أنه قادر على الظفر بها ولا يدفع الثمن...

كانت حكيمة بحق برغم سنواتها العشرين، وقد أدركت أنه لا أحد

يشتري شيئًا حصل عليه فعلًا.. علبة الكشري الشهية تظل علبة كشري شهية إلى أن تؤكل.

* * *

أما الدرس الأهم الذي كانت تضعه نصب عينيها فهو أنه لا خير في الأثرياء. لا خير في الأثرياء. لن يتزوجها أحدهم.. كلٌّ منهم يعتقد أنها مغامرة سهلة لا أكثر.

لهذا كانت تتعامل ببرود أقرب إلى الوقاحة مع كل رجل أو شاب ثري أو مستريح يتودد إليها، وكانت تفضل أن تكلمه من دون أن تنظر إليه.. تعيد له باقي ماله وهي تنظر إلى ناحية أخرى.. كانت بالفطرة تلعب اللعبة التي يطلق عليها الغربيون: «Playing hard to get».

أما مع سعيد أو فهمي أو بكر، فهم أقرب إلى طبقتها ويمكن أن يطلب أحدهم يدها يومًا.. صحيح أنهم فقراء ولا يملكون أي لياقة (فهمي تظاهر بالمزاح واعتصر صدرها ذات مرة) لكنها تصير معهم مرحة منطلقة نوعًا.. فرصتها الوحيدة للأسف مع هؤلاء...

كانت عفاف كذلك سريعة الملل.. الملل لا يدل على الذكاء في كل الأحوال.. قد يدل على غباء الروح.. كل فتيات المحلات ملولات لا يحركهن شيء سوى ظهور سعيد أو فهمي.. هو الوحيد القادر على رسم ضحكة على هذا الوجه العابس القاسي.

بالطبع كانت تملك غرائز، وكانت تشعر برغبة مجنونة أحيانًا، لكنها كانت صارمة مع نفسها جدًّا... سلاحها الوحيد هو ببساطة

سلاحها الوحيد، ولا يمكن تبديده أو تضييع قيمته في معارك سطحية لا تنتهي بالزواج. ربما لو كانت قد نشأت في بيئة أخرى أكثر تدنيًا لادخرته لتبيعه بثمن، ولو كانت في بيئة أكثر اختلافًا لادخرته لتقدمه في السينما أو مسلسلات التلفزيون أو على مسرح الملهى الليلي.. لكن في هذه البيئة بالذات لا يوجد مخرج سوى أن تجد زوجًا مناسبًا.

تعرف الكثير عن غادة التي تعمل في عيادة الطبيب القريبة. إنها تعبث بلا توقف، لكن هذا العبث لن يؤدي إلى شيء.. غادة لن تتقاضى أجرًا، وغادة لن تتزوج الطبيب كما تتصور، وبالتأكيد غادة لن تعمل في السينما أو عالم الاستعراض.

غادة حمقاء فعلًا، لكن عفاف ليست كذلك.

عندما تعود عفاف إلى دارها.. كانت صداقة قوية قد انعقدت بينها وبين أمها.. بالفعل هما الآن صديقتان متقاربتان في العمر أو هذا ما يبدو لك. عندما تنزلان إلى الشارع للتسوق أو للفرجة، فإن من يراهما يشعر أنهما صديقتان خبيثتان تتبادلان الأسرار.. مر زمن طويل على رحلات السوق لشراء كتاكيت لعفاف، مع كوب العرقسوس إيَّاه.

يمكنك تخمين الكثير عن مستقبل عفاف من شكل أمها.. هناك تشابه واضح بينهما كأن واحدة منهما نسخة للأخرى بعد عشرين سنة، إذا أضفنا إلى هذا صعوبة في المشي وعدة كيلوجرامات من الشحم. عامة لن تتدهور عفاف كثيرًا جدًّا، لكن الأم بالطبع فقدت

غريزة أن تغري أو تتأنق، لذا هي تلبس خمارًا واسعًا أبيض يغطي نصفها العلوي كله، وشبشبًا. هي كفت عن التعامل مع عالم الأنوثة من زمن، ولم تعد تعتبر ما تحمله هي على الضلوع نهدين، وإنما هما ثديان مزعجان تحشرهما بأي شكل في سوتيان قماشي متسخ. لكن ابنتها تعطيها امتدادًا لحياة الأنوثة.

الأم فخور بعفاف جدًّا وتشعر بلذة كلما رأت الشباب يتأملونها.. تتسع عيناها وتصير نظرتها أقرب إلى الفحش كأنها اطمأنت على فتاة جديدة في شبكة بغاء خاصة بها. تؤمن بأن ما تملكه عفاف من مواهب سوف يجلب الخير العميم للأسرة يومًا ما، وهي تتعامل مع جسد عفاف باعتباره ملكية مشتركة: هذا خصرنا.. هذا صدرنا...إلخ.

ولهذا سوف تكون جزءًا من أي صفقة تجريها عفاف.. إنها شريكة في العقار وسوف تساوم وتطالب بأرباح.

الأم تتظاهر بالطيبة، لكن أحيانًا تفلت منها علامة على السوقية أو تظهر شراسة مخيفة، وهذا يحرج عفاف جدًّا.

على كل حال يعرف معظم شباب المنطقة أن هذه الأم أسوأ حماة ممكنة.

هذه الأم كذلك هي أول من عرف بموضوع عصام.

كان عصام يحوم بإصرار غريب.. وعيناه الخرساوان لا تفارقان وجه عفاف.. أحيانًا كانت تجده في المحل لأسباب ملفقة...

ضحكت الأم في خبث وسألت عفاف:

ـ من هذا الرجل المسن بالضبط؟ وهل هو جاد؟

لاكت عفاف اللادن في ازدراء وقالت كأنها تبصق:

ـ لا يفتح فمه أبدًا.. فقط يظل يرمقني كالأبله ولا يقول شيئًا.

ـ متزوج؟

ـ يصعب على من كان في سنه ألا يكون...

قالت الأم بخبرة:

ـ ربما لا.. وهذا يعني أنه عديم الخبرة تمامًا وأنه سيكون قطعة صلصال في يدك.. عرفت تومرجية في المستشفى الأميري وقع في يدها رجل كهذا.. كان محاميًا كهلًا في الخامسة والخمسين ومن أسرة محترمة، لكنه لا يعرف النساء إلا من الصور في المجلات... جن جنونه على التومرجية، ولم يستطع أن ينال منها لمسة يد، لذا تزوجها.

قالت عفاف مفكرة:

ـ أنا لست تومرجية ياأمَّه وهو ليس محاميًا.. أعتقد أنه مطلق يريد التسلية.

أخرجت الأم جنيهين من كيس صدرها واتجهت إلى محل عصير القصب على الناصية، وطلبت كوبين.. قالت لعفاف والرغاوي الصفراء تغطي شفتيها:

ـ أنا لن أعلمك.. هذه غريزة لدى كل أنثى.. لا تعطيه أي شيء وفي الوقت نفسه لا تجعليه يقنط ويرحل.

* * *

الحقيقة أن عصام كان يمر بحالة معقدة.

ربما لو وصفناها بسطحية لقلنا إنه الحب.. ولربما قلنا إنه الاشتهاء.. الحقيقة أن الأمر أعقد من هذا بكثير.. كان يحمل نحو عفاف كوكتيل عواطف كاملًا، لكنك قادر أن تتذوق في أي كوكتيل مذاقًا غالبًا.. الفراولة.. الموز.. المانجو.. والمذاق الغالب هنا كان الاشتهاء...

الحقيقة أن رؤية عفاف قد غيَّرت مقاييسهَ ونظرته إلى الأنثى تمامًا.. لقد فقد اهتمامه بالنساء العاديات والصحفيات والمؤلفات وكل من يمكن القول إنهن «من طبقته». احتفظ أنت بفتاتك ذات الشعر الأشقر والجينز والافتعال في كل شيء. لم يعد يهتم إلا بالفتيات الفائرات ساحرات الأعين ممتلئات الصدر. ربما من أصل ريفي أو من حي شعبي.

يتذكر إلهام.. يتذكرها ويقارن بينها وبين عفاف فيشعر بأنه لم يخسر أي شيء. ولم يكسب أي شيء.. هو لم يبدأ الحياة بعد. فقط من هي مثل عفاف كانت قادرة على أن تعيد إليه الحياة.. إنها «إيزيس» التي أعادت الحياة إلى زوجها الممزق المبعثر. سوف يمتص منها الحياة.. سوف ينهض من فوقها ليكتشف أن شعر رأسه قد اسود من

جديد وزالت التجاعيد وبصره حديد. ولسوف يكتشف أن الحياة قد نضبت منها وأنها تحولت إلى كومة منهكة رثة.

لكنه أدرك أنها لا تبالي به.. أو بعبارة أخرى هي تطلب ثمنًا فادحًا مقابل هذا الجسد.. تطلب الزواج به.

كان هذا كله يُشعره بالظلم والغبن.. كان يريد أن يفترسها وهي كانت تريد الزواج والبيت والإنفاق والأطفال... كان يريد جسدها وهي كانت تريد حياته كلها.. فكيف يتفقان؟

أحيانًا كان هذا يمتزج بالكراهية.. كان ينظر إلى كعبها المتشقق ويقول في غيظ: مَن تظنين نفسك؟ تريدين أن تختاري كالفتيات الحقيقيات؟ لو كان هذا زمن الجواري لذهب إلى السوق ليبتاع واحدة مثلها، ولو كان زمن الغزاة لسباها واغتصبها.. لقد جاء في الزمن الخطأ فعلًا...

ثم يضعف من جديد.

لا شك أن الحرمان والاشتهاء يذكيان موهبته وإلهامه. لو ارتوى وشبع لنام خاملًا يرمق العالم بعينين بليدتين غبيتين.. لو نالها لما كتب أبدًا.

يذهب إليها في الصباح.. تتناقض الرغبة في أن يبدو رثًّا فقيرًا أمام الناس، والرغبة في أن يبدو ثريًا مترفًا أمامها. هناك يجدها عاكفة على ذبح الدجاج وإزالة الريش.. أو يجدها حاملة المكنسة وهي تتخلص من الغبار الذي احتشد في محل الكوافير.. يراها وراء الستار المصنوع

من خرز والذي يسد المدخل.. ربما يرى وجهها بين الطُّرح المطرزة بالترتر المعلقة في المحل.

المهم أنه يرى وجهها.. الوجه الذي أضناه ليلًا.

تنظر إليه في برود أو لا تنظر على الإطلاق.

هنا يأتي دور الطلب، وهو دومًا طلب غريب غير موجود، ولا تفهمه أول مرة ولا يريحها بتاتًا. يبحث عن طرحة زرقاء ذات حواشٍ صفراء لأخته، أو يبحث عن صدور دجاج مخلاة، أو يبحث عن أخته نفسها التي ذهبت إلى الكوافير منذ ساعة ولم تعد.

المهم أنه سبب ملفق، وهي تدرك أنه ملفق، وهو يدرك أنها أدركت ذلك. تتعمد أن تُشعره بأنها مشغولة ولا تلاحظ.. أحيانًا تخونها ضحكتها كأنها ممثل رديء يمثل حياته بلا براعة أو إقناع.

تعتذر.. لا بد أن تعتذر.. ثم تواصل العمل في شيء وهمي ما.

أما هو فينصرف.. أنا أحمق.. كان يجب أن أتعامل بأسلوب آخر، وأن أمنحها كلمات أخرى ووجهًا آخر.. غدًا سوف أجرب طريقة أخرى...

وفي غرفته ليلًا كان يشعل لفافة تبغ ويفكر فيها...

الزواج؟ لا يوجد سبيل آخر كما هو واضح.. لكن كيف؟

لو كانت عفاف هي عفاف لتزوجها، لكنه سوف يتزوجها ويتزوج معها مجتمعًا كاملًا.. سوف يتزوج مستوى اجتماعيًّا مختلفًا وطبقة وعادات

وتقاليد وحفنة من الوجوه الكالحة المصابة بفقر الدم. سوف يأتيه رجل بجلباب متسخ يصق على الأرض ويقول إنه عمها، وسوف يأتيه شاب يحك جسده ويتعاطى البرشام ويؤكد أنه أخوها، وسوف تصل امرأة بدينة سوقية تجرجر قدميها الغليظتين في الشبشب تؤكد أنها حماته.

إنه مهتم بالدحديرة، غارق فيها، لكنه لا يريد أن تأتي الدحديرة لتنام معه في شقته.

إن العلاقة المثلى بالنسبة إليه هي علاقة «التيك أواي». خذ حاجتك وارحل. لا أريد مشاكل ولا وجع دماغ، ولا أريد كلامًا عن عمتها المصابة بالسرطان أو خالتها التي تُجري جراحة المرارة.. لا أريد رومانسية وكلامًا عن الحب واللون المفضل لديك وبرجك وأفضل أغنية تحبها لكاظم الساهر.

وتذكَّر عبارة ساخرة عبقرية لمحمد عفيفي تقول: «معنى الزواج هو أن تجلب البقال الذي في آخر شارعك، ليقيم معك في بيتك إلى الأبد وتنفق عليه هو وعياله، لمجرد أنك تحب الجبنة الرومي!».

عبارة دقيقة إلى حد مُفزع.

عفاف كانت قالب جبن رومي، وأي قالب، لكن البقال لا يبيع ولا يقبل بأن يبيع...

البقال يريد حياتك كلها إذا كنت تحب الجبن الرومي حقًا.

١٤

حسين عبد الرحمن استطاع أن يجتاز الأسلاك الشائكة نحو الجبن الرومي.

إن للحب حيلًا غريبة يتسلل بها إلى القلب، وهذه الحيل لا يمكن الإمساك بها غالبًا.. لا يمكن للمرء أن يتذكر السبب الذي جعل العاطفة تتأجج في صدره، لكن بالنسبة إلى عفاف كان حسين يشعل السجائر بطريقة فاتنة.. يُميل السيجارة لتصير عند ركن فمه، ثم يصوب لهب القداحة نحو طرفها ويغلق القداحة في اللحظة التي يتصاعد فيها الدخان الكثيف. هل هذا سبب كافٍ للحب؟ لم تعترف لنفسها بهذا.. لكنها الحقيقة فعلًا. طريقته في إشعال السجائر كانت أول شرارة.

ثم بدأت تتبين أنه شاب أسمر نحيل لكنه مفتول العضلات، وله شعر أكرت مجعد يأبى أن ينام بأي ثمن...

فس س س س!

كان حسين قادرًا على اجتياز السياج.. إنه من طبقتها. بالضبط من

طبقتها. صحيح أنه مفلس ومكافح لكنه جاد. سوف يجد شقة بشكل ما، وسوف ينفق على البيت بشكل ما، وسوف يحبها بشكل ما. لن يتسلى بها ولن يحاول أن يُقبلها في أول مكان مغلق يختليان فيه، ولن يقول لنفسه: فتاة مغرية مكتملة الجسد وفقيرة.. لهذا ستمنح نفسها بسهولة.

حسين ليس من هذا الطراز.

وهكذا كانت تدخر ضحكتها النادرة كي تمنحها له. هؤلاء الفتيات العابسات دومًا تكون ضحكتهن فاتنة حقًا... كأن السيل يتدفق على أرض جافة فتنبت.

هكذا بدأت تلك المغامرات الصغيرة تحدث... نزهة.. ترمس.. كيزان ذرة.. لمسات يد.

تمشي معه متسللة مبتعدة عن محل الكوافير، وذات مرة مرت أمام الحلاق فرأت ذلك الأفندي المسن السمج، عصام، ينظر إليها من وراء الزجاج. ارتبكت للحظة وتعثرت فسألها حسين عمًا بها.. هزت رأسها ولم تقل شيئًا.

عندما بلغا آخر الشارع سمعت مشاجرة شنيعة، لكنها لم تستدر لترى.. وقدرت أنها سبب هذه المشاجرة.. لا تعرف السبب لكنه حدس أنثوي.

ذات مرة ـ بعد وفاة مصطفى المزين الحقيقية ـ أخذها حسين إلى السينما. هناك في ظلام السينما، وعلى صوت مصطفى قمر شعرت بيده تمتد في الظلام لتمسك بيدها.. فقط.. يبدو التعبير أقرب إلى

الخبال لكنها فعلًا شعرت في لمسته بأمومة عارمة! تركت يدها وادعة هانئة هناك.

وفجأة شعرت بتلك المسبحة بين أناملها.. ما معنى هذا؟

قال همسًا:

ـ أريد أن تحتفظي بشيء يخصني.. أن يظل معك شيء لي.

مسبحة صينية تضيء في الظلام.. يبدو أنها من البضاعة التي يبيعها.. يبدو أنه عطَّرها بالمسك الذي يبيعه هو الآخر، وقد دستها في حقيبتها وأدركت أنها لن تتخلى عنها. يحب العشاق هذا الكلام الفارغ جدًّا، ولو لم يمارسوه لصار الحب بلا معنى.

* * *

الرغبة!

* * *

شعر عصام بالحيرة أكثر، وأحس بأنه يتخبط في متاهة من التفسيرات.

ربما لم تكن الكلمة هي السنجة ولا السرنجة ولا السيجة.. من الممكن وبسهولة تامة أن تكون:

السبحة

التوثين أو الفتيشية.. لقد تحوَّلت هذه المسبحة إلى رمز متكامل

لعصام والحب الحقيقي الوحيد في حياتها، لهذا كانت لفظة «السبحة» هي آخر ذكرى تتركها للعالم.

ربما كان الأمر كذلك وربما لا.. وحدها عفاف تعرف الإجابة.

أو لم تعد تعرف...

* * *

بدأت تدرك أنها بحاجة لحسين في حياتها.. لقد حان الوقت كي يصير لعفاف مالك، ولكنها تعرف كذلك أن عليها أن تبقيه ملتهبًا قلقًا متوترًا... عليها ألا تطفئ رغبته أبدًا أو تريحه.. فليبحث.. فليكافح.. فليعمل.

ـ خلي العسل في جراره.. لما يتعرف مقداره.

هكذا تقول لها أمها وهي ترمق جسدها في جشع كأنها رجل. وبالطبع لم تخبر عفاف أمها بأي شيء عن حسين.. هذه مجازفة رهيبة.. الأم لن تفهم سوى أن ابنتها قررت أخيرًا أن تسلم كنزها الثمين لشاب بلا موارد.

فضَّلت الصمت...

ولكنها وضعت نفسها بالكامل في عالم قصص الحب. كان قد أعطاها بعض شرائط الكاسيت الخاصة بكاظم الساهر، فكانت مناسبة جدًّا.. العودة من المشغل منهكة.. الطعام.. مشاهدة التلفزيون.. ثم الفراش وسماع كاظم على الكاسيت العتيق الذي لا يريد أن يتلف.

حالة حب صناعي وضعت نفسها فيها واستمتعت بها كثيرًا.

أحيانًا كانت تحلم بحسين.. لكن في مرات عدة رأت ذلك الأخ المسن عصام، ومن الغريب أن هذا هزها لدرجة أنها صحت من نومها وراحت ترتجف في الظلام.

ذات مرة رأت في المنام إبراهيم.. وقد نظر إليها تلك النظرة الشهوانية التي تعرفها، وخطر لها أن هذا مخيف حقًّا. في الصباح عرفت أنه لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، وأنه كان مصابًا بسرطان الكبد.. هذا أثار فزعها لأنها قدرت أن ما زارها ليلًا كانت روحه.. روحه لحظة الاحتضار بالذات.. كأنه لم يرد ترك العالم قبل أن يلقي عليها نظرة شهوانية أخيرة.

* * *

في الآونة الأخيرة اختفى حسين تقريبًا.

لم تعرف عفاف السبب، وشعرت بقلق جم، لكن الحقيقة هي أنه فاز بما يريد أخيرًا. لقد جاءه عباس ذات صباح وطلب منه أن يلحق به.. قالها من دون أن ينظر إليه. كانا قد حددا اليوم على كل حال.. مشى ومشى حسين وراءه.. عبرا قضيب القطار ومرًّا بأطفال يلعبون ويصخبون.. مرًّا بنسوة يغسلن الأواني أمام ديارهن.. مرًّا بحمار يلتهم التبن من كيس خيشي.. مرًّا بعجوز تبيع الباذنجان المخلل والبطاطس المقلية، ثم عرجا على الممر الضيق الذي يفصل بيوتًا عن بعضها.. بيوتًا يمكن لصاحب أي بيت منها أن يمد يده ليغمس لقمة في طبق يلتهمه صاحب البيت المواجه.

أخيرًا كانت منطقة الورش.. حيث رائحة المازوت تخنق الأنفاس، وتتناثر بعض عربات القطارات المهجورة.. كانت هنا طبلية لوزن العربات في الماضي لكن لا يعرف أحد متى توقف هذا.

كان هناك برميل معدني مطبق جوار جدار، فاستند عليه عباس ونظر حوله في حذر:

ـ فلوسك.

وتناول اللفافة البلاستيكية من حسين.. لم يعدّ.. فهو يعرف يقينًا أن المبلغ صحيح. التعامل الآن يتم مع حماصة شخصيًا ولن يحاول إنسان بكامل قواه العقلية خداع حماصة، ما لم يرد أن يتذوق أذنه المقطوعة داخل فمه، أو يرى بعين واحدة عينه الأخرى تتدحرج على التراب.

دس اللفافة في جيبه، ثم مد يده في البرميل وأخرج لفافة مماثلة.. ناولها لحسين.

تساءل حسين في سذاجة:

ـ هل هذه طبنجة؟

وضع عباس إصبعه على شفته منذرًا:

ـ اثبت! تعامل معها بحذر.. هذه ليست صناعة بلادها، بل خرطت الماسورة في ورشة.. يمكن أن تنفجر في وجهك.

ـ وماذا أفعل لأحتاط لذلك؟

ـ أضمن طريقة ألا تستعملها.. سلام.

وفي اللحظة التالية كان يركض عبر القضبان ورائحة المازوت مبتعدًا.

نظر حسين إلى اللفافة في شغف، وقدر أنه يجب أن يقصد منطقة نائية ليجرب الرماية.. ترى هل تذكَّر أن يضع له رصاصًا؟ ولو كان قد فعل فكم رصاصة؟ كيف يقوم بالتلقيم؟ سوف يعرف.. واحد مثله قضى شبابه في تشغيل الاختراعات الصينية العجيبة التي لا توجد معها ورقة تعليمات.. سوف يعرف بالتأكيد.. واحد مثله قضى شبابه يحلب البراغيث سوف يعرف بالتأكيد...

لقد دخلت الخطة حيز الواقعية المخيفة، لكنه سينفذ ما انتواه.

كان قد اختار رئيس الحي بالذات.. هو رجل مناسب جدًّا.. يمقته الجميع، ويعرف الكل أنه لص، ويبدو كأنه أحد أشرار السينما...

سوف يفرغ المسدس في بطنه.. وسوف ينظر إليه الرجل في ذهول ويفرغ أحشاءه عبر الفم، قبل أن يسقط والدم يسيل من بطنه بلا توقف.. سوف يعرفون جزاء التحرش به وملاحقته ومنعه من الحياة.

عندها سيحاول الفرار.. لو فر فبها، وإلَّا فلسوف يسقط متشحطًا في دمائه عندما يفرغ رجال الشرطة رصاصهم فيه.. أو ينقض عليه المارة ليقتلوه ضربًا.

عفاف سوف تبكي كثيرًا.. لكنها لن تنساه إلى الأبد.. ولسوف

يلتف كل سكان الدحديرة حول الجرائد يتأملون صورته في صفحة الحوادث، وسوف يحاولون تخمين من أين جاء بالطبنجة.. ولسوف يزعم كل واحد أنه صديقه وأنه أخبره بخطته اللعينة تلك.

يومًا ما سيصير رمزًا، ولسوف يخرج كل واحد من هؤلاء المطحونين لينتقم انتقامه الخاص.. لكل واحد مسؤوله الذي سيفتك به.

كل هذا رائع، لكن عليه أن يتدرَّب وأن يُحسن استخدام الطلقات.. لا يريد أن يبدو كالأبله عندما يفرغ رصاص المسدس في وجه رئيس الحي فلا تفتك به أي طلقة. في النهاية يقف حسين موشكًا على البكاء بينما السابلة يلتفون حوله.. عندها سينسون كل شيء عن رئيس الحي، ولن يتذكروا سوى أن هذا لحم حي يصلح لإخراج ساديتهم.. يصلح للركلات والبصقات واللعنات واللكمات.. أمه لن تتعرف على جثته إلا بكثير من الجهد.

«سامحيني يامَّه». قالها وشعر بالدموع تحتشد في عينيه.. يشعر برثاء هائل للنفس.. وكالعادة اختار بيتًا من الشعر للديب:

وداعًـا شبابـي في ربيـع شبابـي   وأهلًا حسابـي قبل يوم حسابـي

١٥

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ كل ليلة.

كان عصام واقفًا عند ذلك المطعم الذي يبيع الدجاج المشوي ويبيع الرائحة. كالعادة، المدينة خالية تمامًا في ذلك الوقت وهواء البحر الموحش يهب من بعيد.. يتردد نباح الكلاب مع صوت الموج فتشعر أنك خارج العالم. فقط لا يبقيك على صلة إلا هذه المقاهي والمطاعم المعدودة التي تذكرك بأنك لم تمت.. تلعب بالضبط ذات دور الواحات في الصحراء في أثناء عاصفة رملية عاتية، أو الفنار المضيء في البحر وسط إعصار.

الرائحة شهية بالفعل.. من الجميل أن هناك شهوات أقوى من اكتئابك ومللك.

طلب نصف دجاجة مشوية ليأكلها في البيت، واتجه إلى الثلاجة لينتقي بعض المياه الغازية.

سمع ذلك الصوت المألوف يتردد:

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

مع بحة تدل على إفراط في التدخين. تبًّا لها! هذه الفتاة لا تعمل ولا تكسب تقريبًا لكنها لا تمل المحاولة. ولو كانت تنجح في الظفر بزبون فعلًا في كل مرة تطلب فيها ثقابًا، فهي ليست فتاة.. إنها مرحاض عمومي.

فرغ البائع من لف الدجاجة فناولها له وهو يبتسم في خبث متوقعًا بقشيشًا، لكن عصام ابتسم بتهذيب.. آسف.. هناك في مصر بضائع عجيبة تباع ولها رواج غريب؛ مثل الابتسامة الخبيثة وهز الرأس، والبضاعة الشهيرة «كل سنة وأنت طيب».. هذه بضائع يتم تداولها ويمكن أن ينفق رب أسرة من دخلها على أسرته. لا بقشيش يا صاحبي.. أنت تؤدي عملك.

نظر ليرى نوال واقفة مع ذلك الشاب الذي يتدلى شعره على كتفيه، وقد عقص بعض الخصلات بشريط. كانا يقفان أمام قائمة كبيرة ملونة كتبت عليها الأصناف.

كان الفتى يهمس لها بصوت مسموع:

- اثنان غيري.. لقد أنذرتك مسبقًا.

- أعرف.

- وهما لا يرضيان بسهولة.. لقد سافرا وزارا أوروبا وأمريكا.. ولديهما خيال واسع.

قالت في إصرار وهي تنظر إلى القائمة المغرية:

- نصف دجاجة لي وحدي.. مع السلاطات.

- لقد قابلا نساء كثيرات.. ليسا من طراز الطلبة الذين....

- وعلبة كولا أشربها وحدي.. هه؟

كان الموقف واضحًا. الفتى يساومها من أجل أداء جنسي أفضل مع السادة الذوَّاقة الذين ينتظرون، وهي ببساطة جائعة.. هو يحلم بالتهامها وهي تحلم بالتهام نصف دجاجة.. نصف دجاجة لا يشاركها فيها أحد، ولا يتم تقسيمها على خمسة أطفال.. علبة كولا لا يتم توزيعها على الأسرة ليأخذ كل منهم شفطة.. تريد أن تشرب حتى تنتشي وتفور...

تمنى عصام لو يبتاع لها دجاجة كاملة، فقط لو تخلصت من هذا الحيوان.. لكن هذا مستحيل.

ابتعد وهو يفكر.

لا رغبة لديه في العودة إلى البيت الخاوي الآن، ليبحث في عقله الخاوي عن أحداث للرواية لا وجود لها. هذه أمسية عاشها مرارًا من قبل.. فليجلس في أي مقهى ويلتهم وجبته هذه.

وجد مقهى آخر مهجورًا فجلس بالداخل حيث الدفء. فتح اللفافة وبدأ يأكل، والنادل رآه فجلب له كوب ماء في صمت وانصرف.

سمع فرامل السيارة بالخارج.

استدار لينظر عبر نافذة زجاجية متسخة خلف رأسه.

هنا رأى تلك السيارة تتوقف، والباب الخلفي يفتح، ثم رأى شيئًا يقذف منها أرضًا مع سبة بذيئة، ثم عوت المحركات من جديد مبتعدة... إن الشيء المكوم أقرب إلى جسد بشري وليس كيس قمامة.

هرع خارج المقهى ليجد أن الشيء الملقى على الأرض هو الفتاة.. نوال بالذات. كان وجهها متورمًا والدم يسيل من أنفها.. وكان شعرها عجينة من القذارة والدم. البلوزة مفتوحة ولا يوجد فيها سوى زر واحد، كما أن ثيابها الداخلية ممزقة.

«مفاجأة القديس جون».. طبعًا.

لقد نالوا منها وأخذوا كل شيء.. ثم كانت هناك حدود لم تستطع أن تجتازها.. السادة الذوّاقة الذين رأوا العالم أرادوا تجربة شيء جديد، وهي رفضت. هكذا انهالوا عليها بالضرب ومزقوا ثيابها ثم ألقوها في الشارع. بالتأكيد لم تتلقّ أجرًا ولم تنل نصف دجاجة كما اشتهت. حاول جاهدًا أن يجرها جوار الرصيف.

- اتركها يا أستاذ.. واضح أنها نجسة.

قالها نادل المقهى الذي خرج ليرى ما يحدث. يتكلم عنها كأنه وجد مريض طاعون خارج مقهاه.

لم يجرؤ عصام على أن يقتادها إلى داخل المقهى. بدا له الموقف مسرحيًّا أكثر من اللازم كأنه فيلم عن المومس الفاضلة. وبدا له أي تعاطف معها نوعًا من الاندماج التمثيلي لا يخلو من رياء. كل ما يعرفه هو أنه عاد إلى المقهى حيث المائدة الصغيرة. فحمل اللفافة التي بها نصف الدجاجة وعلبة المياه الغازية. فتح اللفافة ووضعها جوارها على الرصيف.

مد يده الملوثة بلحم الدجاج فوضع أنامله تحت ذقنها التي غطاها الدم.. لكنها لم تكن تنظر إليه.

كانت تنظر إلى لفافة الدجاج وتبتلع ريقها...

نهض في بطء عائدًا إلى المقهى.

طلب شايًا وحجر معسل.. وحاول ألا ينظر إلى الوراء ثانية، ولم يلقِ نظرة ليرى إن كانت قد التهمت ثمن عذابها أم لا.

* * *

فلتمت... ليتها تموت.. لو كان للحياة معنى فلتمت!

* * *

فرغت أم بلبل من سكب الماء القذر المتخلف من الغسيل، وألقت نظرة على قضبان القطار وذلك القطار الذي يهدر من

بعيد مبتعدًا، بينما عادت الحركة تنشط في المكان بعدما توقفت لبضع دقائق.

كما قلنا لا يوجد هنا مزلقان، وإنما كل واحد لديه مزلقانه الخاص.. كل واحد يقرر اللحظة التي يعبر فيها أو يحجم.

عادت إلى العشة الضيقة.. ثم وقفت حافية القدمين تنشر الثياب التي غسلتها على حبل معلق هناك عند المدخل. خلفها ما زال وابور الجاز يهدر. سوف تضع عليه وعاء لتسلق السبانخ حالًا.

كان بلبل يرقد على الأرض داخل العشة وهو يتنفس بصعوبة.. يركل بقدمه.. يخنفر.. كانت تعرف جيدًا أن هذا ليس نعاسًا كله، لقد امتلأ دمه بالكيماويات والسموم، وبعضها منشط وبعضها مثبط، حتى إن جهازه العصبي لم يعد يعرف ما يجب عمله.. هناك جزء قرر النوم، وجزء قرر الاستيقاظ. الحل الوسط الذي وجده الجهاز العصبي هو أن يكون نومًا مليئًا بالكوابيس.

بالطبع لم تفكر في الأمر بهذا الوضوح، لكنها استنتجته بشكل عام أقرب إلى الغريزة.

علَّقت فانلة أخرى.

وكانت قد وجدت تلك الأقراص اللعينة فعرفت أن المشكلة لم تعد البانجو فقط. الفتى لم يعد يعمل ولم يعد يأكل تقريبًا.. يصحو ليدخن ويشتمها ثم يختفي بضع ساعات ويعود لينام.

إنها لعنة عباس الدلجموني على الأرجح.

علَّقت قميصًا.

أحيانًا يظهر علاء أبو فرحة.. هو يعمل في معمل المخللات وقد اصطحب ابنها هناك لفترة، وقد عمل بلبل بعض الوقت، لكن عادة شرب البيرة والبوظة بدأت تلاحقه مثل علاء.

علَّقت سروالًا داخليًّا.

سرق بلبل مالها مرتين من قبل.. كان يجد الكيس القماشي الذي تضع فيه المال، فيفرغه مما فيه، لكنها لا تستطيع أن تغضب.. لا تستطيع أن تطرده.. هي وحيدة وليس لديها رجل، وبلبل يجلب بعض الملاليم من حين إلى آخر، كما أنها تبيع الباذنجان المخلل أو تقلي الطعمية من حين إلى آخر فتحصل على ملاليم أخرى. لا تملك ترف التخلص منه.

علَّقت قميص نوم.

رأت من بعيد جمال الفقي يجري وهو يتلفت حوله.. كان متلهفًا قلقًا وعيناه جاحظتان تلمعان. يبدو أنه حريص على ألا يراه أحد.. هناك كيس قماشي يحمله في يده.. كيس مربوط بحبل من ليف فلا يمكن معرفة ما به، وقدرت أنه على الأرجح سرقه.

لم تكن تحب الفقي ولا ترتاح له، لكنه كان يتردد على ابنها أحيانًا.. وأثار نفورها منه أكثر أنه كان ذات مرة جالسًا على عتبة الباب فرأت ساقيه العاريتين.. هناك جروح طولية غريبة تملأ الساقين، ويبدو كأنه هو من أحدثها بنفسه. تعرف أن المدمنين يصنعون بأجسادهم أشياء شبيهة، لكنها لم تعتقد قطُّ أنه مدمن.

سكبت الماء الباقي على الأرض ودخلت العشة، لتبدأ سلق السبانخ.

بلبل كان في عوالم أخرى متشابكة. كان هو السلطان الذي يلبس عمامة كبيرة ويجلس على طنافس ويحسو النبيذ، بينما أمامه ترقص جارية شبه عارية. وهذه الجارية كانت تلك الفتاة، عفاف.. الفتاة التي تذبح الدجاج في المحل القريب. هذه المرَّة لم يكن جلبابها متسخًا ولم تكن هناك بقع دم على يديها ولا جيدها. كانت نظيفة عطرة تنتظره في شغف.

ثم رآها تحمل السكين وتتقدم إليه.. تقبض على جناحيه.. متى صار له جناحان؟ إنها تحمله.. فجأة لم يعد هناك تناسق في الحجم.. فجأة صار بحجم دجاجة في يدها.. قلبت رأسه ليدخل في قمع معدني.. ثم هوت بالسكين على حلقومه.

كان يشعر بالسكين فعلًا لكنه كان منتشيًا سعيدًا...

عفاف.. لا أستطيع أن أنالك إلا بعد «الترامادول». لهذا أتعاطى «الترامادول» لأنه لا يخذلني أبدًا.. في كل مرَّة أتعاطاه أظفر بك. لا ممانعة ولا دلال ولا طلبات.. فقط الكثير من الـ... هه... هه...

اليهود الذين تفوح منهم رائحة السبانخ المسلوقة قد جاؤوا لأخذك.. سوف يسبونك وينالون منك جميعًا. أولاد الكلب.. أولاد الثعابين.

لكني سوف أمنعهم من ذلك.. سوف أهزمهم جميعًا.. فلينتظروا حتى يروا كيف أذبحهم جميعًا بهذه السكين التي في يدك.

وثب من رقدته على الأرض.. لم يكن يرى بوضوح، وهكذا تحسس طريقه لخطوة واحدة قبل أن يركل وابور الجاز، وسمع أمه تصرخ ثم شعر بحريق هائل في قدمه العارية.. اليهود قد أحرقوه بالنابالم.. يا أولاد الـ....

النابالم ممنوع يا كفرة!

كانت النار قد تمسكت بملاءة الفراش عندما طار الوابور، وخرجت الأم من الغرفة تصرخ.. لقد أحرق نفسه بالماء الساخن.. النار تشتعل في العشة.

ومن كل مكان تعالت الصرخات...

ثم ظهر رجال يحملون الماء في آنية واندفعوا داخل العشة يلقون الماء على الحريق الوليد. التف الأطفال في نشوة يرقبون المشهد، وتصاعد دخان رمادي يشي بأن النيران انطفأت فعلًا.. لم يكن الأمر كارثيًّا.

أما بلبل فجلس على الأرض وقد فرد ساقه وراح يرمق الاحمرار المتزايد، وتساءل عن مصدر هذا الحرق.

تحسس عنقه.. ما زال هنا. لم تُزله عفاف إذن.

كان يحلم.. لكنه حلم رائع الجمال.

عندما انتهى الرجال من مهمتهم، وعندما راحت أم بلبل تحصي الخسائر لتعرف ما فقدته من عالمها الصغير، نهض هو بصعوبة.. وجد أمامه عباس الدلجموني، ولا يعرف من أين جاء.

تواثب حتى استند على كتفه، وقال لاهثًا:

ـ أريد الذهاب إلى المستشفى ليروا قدمي.

رأت أم بلبل الدلجموني هنا، فهرعت نحوه وهي تأتي بحركات بذيئة بيديها.. وبصقت في وجهه، لكن البصقة لم تبلغه:

ـ أنت يا واطي يا ابن الواطي.. لقد ذهب عقل الولد بسبب هذا الهباب الذي تقدمه له. لقد داس في الماء المغلي ولم يشعر.. لأن عقله انتهى.

كان عباس يدرك الموقف جيدًا، ويدرك أنه لن يكسب الشجار مع هذه المرأة عالية الصوت سليطة اللسان، ثم إنها ستفضحه.. هكذا اكتفى بأن زغر لها زغرة مخيفة من التي يجيد اصطناعها، ثم أشعل لفافة تبغ ودس يده في جيب السويتر وأسند ابنها باليد الأخرى، وهو وضع بهلواني عجيب لكنه يناسب الانطباع الذي يريد تركه: محترف. وغادر قاصدًا المستشفى.

يتمنى التخلي عنهما، لكن الأخوية لا تسمح بذلك...

١٦

عندما دخل عصام إلى صالون الحلاقة، في ذلك اليوم الأسود، كان جمال الفقي جالسًا على المقعد وقد أغمض عينيه بينما الصابون يغطي نصف وجهه تقريبًا، وكان يكلم مصطفى المزين:

ـ أولاد الحرام أوقعوا بيننا، ولعله الشيطان.. بيني وبينك.. عندما أغضب أصير حيوانًا حقيقيًّا.. أتحول إلى كلب مسعور.

نظر مصطفى نظرة جانبية ليرى الزبون غريب الأطوار يرفع يده محييًا، ثم يجلس.

لم يرد التحية.. توتر.

قال لجمال وهو يزيد من ثراء الرغوة:

ـ مفهوم.. مفهوم.. أنت تصير لعينًا عندما تغضب.

ـ لكن بيني وبينك.. عندما رأيتك على الأرض فاقد النطق شعرت بأن كل غضبي تأخر.. بصراحة أنت رجل بركة ونحمد الله على

أنك ظللت بيننا.

مد الحلاق يده إلى الموسى ومررها على الحزام الجلدي، ثم بدأ بحنكة ويد ثابتة يزيل الصابون.. طرق ممهدة بلون البشرة تتشكل على وجه جمال.

كان عصام ينظر خارج الواجهة الزجاجية المهشمة.

يرى الفتاة عفاف تمشي مع ذلك الفتى مندوب المبيعات حسين. يمشيان لكن كل شيء يوحي بأنهما يمارسان الخطيئة.. هي مرتبكة خائفة من النظرات، وقد التقت عيناها مع عيني عصام للحظة فبدت فيهما نظرة من طراز «يا مصيبتي يا فضيحتي».. قالت شيئًا همسًا للفتى ثم واصلا السير.

شعر بحسد شديد. لقد أحبها بعنف.. أو ـ من أجل الدقة ـ اشتهاها بعنف، وبالتأكيد كان يفضل رؤية جثتها المتعفنة على أن يراها تمشي مع واحد آخر.. ماذا تتوقعين أن يمنحك هذا الصعلوك؟ أنا لست ثريًا ولا أغاخان، لكني بالتأكيد لا أبيع سلاسل المفاتيح والعطور المغشوشة في المقاهي.. هذا دليل آخر على سطوة الجنس التي تلغي التفكير تمامًا. لو أنك تزوجت هذا الفتى لنعمت باللذات ثلاثة أيام.. سيذيب أنوثتك ويحرقها ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فحسب، ثم يبدأ الجوع.. يبدأ الشك.. يبدأ العري وتظهر الأحذية الممزقة.. سوف يبدأ اللعب.. سوف يتهرَّب منك حتى لا يتحمل مسؤولية الإنفاق. سوف يعطي وعودًا لا يفي بها.. سوف يستولي على مالك الضئيل.. سوف يكذب.

أنت غبية.. غبية.. ولكني كذلك لن أتزوجك وأنت تعرفين هذا.

مد يده إلى العلبة وأخرج لفافة تبغ.. وعالج الثقاب.

لاحظ أن الحلاق المسن ينظر إلى المشهد عبر الزجاج مثله، ولحسن حظه أن الموسى يعرف طريقه وإلّا لذبح الزبون.

شعر عصام بأنه يجب أن يتكلم، وليته سكت.. فقال:

ـ فعلًا.. شباب حار الدماء.

وضحك مع أن الحلاق لم يعلق.. وأردف:

ـ الهرمونات.. المحصول الوحيد الصالح للتصدير في مصر.. لكن هذا لا يدوم.. الفراخ المغشوشة تقضي على أي رجولة.. سرعان ما ينهار كل شيء، ويفر الفتى من ليالي الخميس ويتعاطى الفياجرا ويبتاع الجمبري... ربما يغرق الكلاب الصغيرة كما يفعل زبونك الذي حكيت لي عنه!

كانت هذه هي الغلطة.

لقد داس على ذيل الشيطان من دون أن يعرف.

فقط في اللحظة التالية كان يحدق في العينين الناريتين لجمال الفقي الذي ظل نصف وجهه مكسوًّا برغوة الصابون، وبمعجزة ما كان يحمل الموسى في يده.. وكانت المنشفة تتدلى كمشنقة من عنقه.

أما الحلاق فانكمش في الركن يخشى أن يتكلم أو يقول أي شيء.

ـ عمَّ تتحدث؟

قال عصام في عدم فهم:

ـ لا شيء.. موضوع لا يخصك.

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ هذا شيء بيني وبين عم مصطفى.

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ هناك أشخاص مصابون بشذوذ غريب و...

ـ عمَّ تتحدث؟

وهكذا يمكن أن نلخص الموقف.. لم يتلقَّ أحد هذا القدر من الصفعات إلا في ظروف نادرة، منها ذلك الشرطي السادي الذي صفع الضحية ستًّا وثلاثين صفعة في فيلم «يوتيوب» الشهير، ومنها بلدينا الذي تلقى ١٦ صفعة فجأة، حسب النكتة.. فيما عدا ذلك يصعب أن نتذكَّر نموذجًا مماثلًا تلقَّى كل هذا القدر من الصفعات والركلات في الخصيتين، ويصعب أن أتذكر أي واحد تلقَّى هذا السيل من الشتائم البذيئة الشنيعة.

كان الأمر غير بشري حتى خطر لعصام في لحظة أنه وقع في يد أحد آلهة الأوليمب ينفذ فيه انتقامًا أسطوريًّا مثل عقاب «تانتالوس» أو «بروميثيوس».

هل سيعلقونه بين جبلين حتى يأتي الرخ ويلتهم كبده إذن؟

كان الأمر شديد القسوة والعنف.. حتى إن من هرعوا لتخليص المشاجرة تصلبوا في رهبة عاجزين عن الكلام أو التدخل. الأمر قد تجاوز المشاجرة إلى مشهد ملحمي مهيب.

بالتأكيد كان عصام سيهلك هنا والآن.. لو لا أن رحمة الله تدخلت من جديد.

تهاوت قدما الحلاق المسن من تحته وأطلق أنينًا سريعًا ثم غاب عن الوعي.

التف الجميع حوله لكن جمال الفقي بصق باتجاهه في اشمئزاز:

ـ يمثّل! ابن الهرمة يمثّل.. في كل مرة يفعلها.

لم يكن أحد مستعدًّا للرهان على ذلك، فقد بدا أن الشيخ مات فعلًا، ومن مكان ما ظهر علاء أبو فرحة ورائحة المخللات والبيرة تفوح منه، وصرخ في هستيريا كأنه امرأة جزعة:

ـ عم مصطفى ى ى ى!

عامة ساد المكان الضيّق شعور عام: لو لم يكن الحلاق قد مات فإن موقفه محرج جدًّا.. لا أحد يتحمل هذه اللعبة السخيفة مرتين في أسبوع واحد.

بالنسبة إلى عصام الذي تحول وجهه إلى ما يشبه القلقاس الذي بعث للحياة، كان الأمر واضحًا.. بصق سنًّا.. سنين مهشمتين..

جمال الفقي هو الذي يمارس عادة إغراق الكلاب الصغيرة، والحلاق قد تكلم أكثر من اللازم.. ثم جاء عصام الغبي ليتكلم أكثر فأكثر.

هكذا يمكن أن نقول إن الحلاق مات. نوبة سكري أو نوبة قلبية.. لا يهم. لقد كان الضغط العصبي شديدًا.

عرف عصام كذلك أنه لن يزور الدحديرة ثانية، لأن جمال الفقي سيفتك به حتمًا.. لقد انتهت القصة وانتهت علاقته بهذا المكان.

راقب الجمع يحملون جثمان الحلاق ويهرعون نحو المستشفى كالعادة. لا يملك أي خبرة طبية لكنه يعرف نتيجة الكشف.

هذه المرة اجتاز مصطفى العتبة.. هذا مؤكد...

وبحث عصام عن جمال الفقي.. الرجل الذي صفعه ما يكفيه لعدة أجيال، فلم يره.

ذاب في الزحام.

طفلة حافية في الخامسة بلا سروال ولا لباس داخلي تقف على باب الصالون وترمق عصام في فضول. تأكل قطعة بطاطا لوثت وجهها بالكامل.

ثم ظهرت امرأة بدينة شرسة التقطت الطفلة على كتفها وهي ترمقه في مقت.. وابتعدت...

مشى مترنحًا شاعرًا أن النار تخرج من خديه.

والأسوأ هو أنه شعر أنه استحق هذه العلقة. لقد كان غبيًّا وتصرف بلا حذر. لا يستطيع أن يشعر بالظلم.

* * *

هذه المرَّة قاس الطبيب النبض وضغط الدم، ثم أخرج كشافًا صغيرًا سلطه على حدقة العين.. هز رأسه من دون تعاطف وانصرف ليرى مريضًا آخر.

هنا فقط أدرك الواقفون أن مصطفى المزين مات فعلًا... مات «أنوبيس» إله التحنيط الذي يحب الموت ولا يموت.

هذا الرجل سوف يصل إلى مثله الأعلى حالًا، ولشد ما سيحب ما يلقاه ويراه.

وفي هذه اللحظة فقط أدركوا أنهم لا يذكرون شيئًا عن أهله ولا أقاربه. هناك من تذكَّر أن له ابنًا عاقًّا في مصنع الكتان، وهناك من قال إن له أخًا إمام زاوية قريبة.

سوف يتصرفون.. علاء أبو فرحة سوف يتصرف، فهو ما زال مدينًا للرجل بعد ما قام به لدى وفاة أبيه، والحقيقة أن مصطفى لم يكن يتصرف عن شهامة.. كان يتصرف لأنه يحب جو الموت والأكفان والمقابر. لا أحد يشكر اللص لأنه يسرق المال فيمنع عنا أعين الحاسدين، ولا أحد يشكر القاتل لأنه يحل مشكلة زيادة السكان.. يجب ألَّا تشكر مصطفى على شيء، لكن الفتى أقنع نفسه بأن الشيخ قدم له خدمة العمر.

وعندما انغلق باب المقبرة على مصطفى المزين، وعندما أتم اللحاد عمله، شعر القوم بشعور لم يفهموه.. «تشيكوف» وصفه من قبل بدقة، عندما قال إنه يشبه شعورنا أطفالًا عندما كان الكبار ينامون ويتركوننا أخيرًا لنلعب. لكن أحدهم لم يقرأ «تشيكوف» بالطبع، وكان عصام بعيدًا ليفكر في هذا الأمر.. كان في داره يضع ثلجًا ملفوفًا بالشاش على وجهه المتورم. تمنى لو كانت هناك كمادات تزيل الإهانات.. للأسف لم تخترعها شركات الدواء بعد.

ابتلع قرصين مهدئين ودخل الفراش محاولًا النوم.

وفي المنام رأى نفسه حبيسًا في كيس قماشي، بينما جمال الفقي يسقطه في الترعة.. يسقطه وهو يتأوه من فرط النشوة والتلذذ الموشكين على قتله قتلًا.

الماء البارد في كل مكان.. لا يوجد هواء.

لا يوجد هواء.

جمال منتشٍ.

جمال ملوث بالعرق.

جمال يصفعه.

الماء البارد!

١٧

جلس علاء في معمل المخللات أمام وعاءين من البلاستيك، يقوم بتقطيع اللفت بسرعة جهنمية. مشتاقًا إلى البيرة ويحلم بالتبول.. خطر له للحظة أن البول والبيرة يبدأ كلاهما بحرف الباء ولهما نفس اللون والمظهر، وأحدهما يجلب الآخر بغزارة، ثم بدت له هذه فكرة مثيرة للاشمئزاز.

كانت يداه تعملان بسرعة تفوق سيطرته عليهما.. أي أنه بالفعل لا يرى السكين ولا رأس اللفت التي يقطعها. لقد صار كذا بعد ساعات طوال من العمل وعشرات الجروح.

لكنه لم يستطع قطُّ أن يكبح رغبته الجهنمية في إفراغ المثانة، لذا طلب من زميله أن يكمل ونزع المريولة. هرع يشق طريقه بين البراميل ذات الرائحة القوية، وانطلق إلى الزقاق المجاور.. حيث الجدار المفضل لديه ليفرغ مثانته.

الكتابة على الجدار تتغير بلا توقف.. مثلًا هذه المرَّة كان هناك

علم مصر، وعبارة «الجيش والشعب إيد واحدة» وهي التي ستتحول بعد أشهر إلى «يسقط يسقط حكم العسكر» وربما تصير «يسقط حكم الإخوان» بعد فترة.

لكنه ما زال يرى الحروف التي كتبتها الفتاة بـ«السبراي».. تلك الحروف العفاريتي.

يرسم بالبول خطوطًا ونقوشًا تجريدية على الجدار.. نقوشًا لا تدوم أكثر من دقيقة ثم تتلاشى. يحاول في الوقت ذاته أن يقرأ ما كتبته الفتاة:

السيجة

بالفعل هي كلمة «السيجة».. ليست السبحة كما خطر له من قبل. لكن هل من عادة من يرغبون في الانتحار أن يكتبوا «السيجة» على الجدار؟ ما معناها؟ كان يؤمن بأن الفتاة كانت تعمل في شبكة دعارة ما، فلماذا تكتب العاهرات لفظة «السيجة» قبل الموت؟ عادة غريبة فعلًا.

لغز حقيقي... لو كان له من الأمر شيء لأخرج الفتاة من قبرها وعذَّبها حتى تنطق وتخبرهم بما تعنيه.

يخرجها من قبرها؟

للحظة شعر برجفة تسري في مجرى البول.. نوع من الكهرباء. لم تكن هذه حصوة بولية تتحرك بل فكرة تتحرك.

مصطفى المزين قد مات.

هل تستطيع أن تقسم على هذا؟

الطبيب قال إنه مات، لكن ماذا لو كان الطبيب أحمق؟

أنت رأيته في نوبة السكري الأولى.. هل كان هناك عاقل على ظهر الأرض لا يستطيع أن يقسم على أن الحلاق مات؟ ومع هذا دبت الحياة في الحلاق وفتح عينيه. لماذا لم يحقنوه بالجلوكوز ليروا؟

مصيبة حقيقية لو كان الرجل حيًّا... لقد توفِّي منذ أسبوع، ومعنى هذا أنه مات فعلًا حتى لو كانت نوبة سكري بريئة.

كيف يتأكد؟

هذه الفكرة ستلاحقه حتى الموت، ولن يتخلص منها أبدًا.

* * *

مع الظلام لا يبقى صلاح هناك.

إنه في مكان ما مع حماصة يقومان بشيء لا نعرفه.. المهم أنه شيء غير قانوني ويتعلّق بالمخدرات.. تعبئة.. شراء.. بيع...إلخ.

لم يكن حماصة من تجار المخدرات ذوي الخبرة، ولكن هذه المهنة تحتاج إلى جيش من البلطجية للحماية.. هنا تتداخل المسؤوليات.

المهم أن العشة كانت ترقد وحدها في الظلام.. ومعظم العشش

المحيطة بها مظلمة كذلك إلا من ضوء لمبة واهنة (سهاري). وهكذا كان عباس يدنو لاهثًا وهو يشهق من الانفعال والقلق والرغبة.. كلب أبله حاول أن ينبح في وجهه لكنه وجه له ركلة جعلته يركض وذيله بين فخذيه.

لا يخاف الكلاب لكنه لا يريد ضوضاء.

قرع الباب مرتين بطريقة معينة. انفتح في حذر ليكشف عن وجه صابحة زوجة صلاح. نظرت حولها ثم سمحت له بالدخول. بمعنى آخر وثب إلى الفراش ليتربع فوقه.

التقت الشفتان في نوع من الالتهام المتبادل.. شهقات ساخنة تحرق... بركان رغبة ينفجر.

لا داعي لوصف ما حدث بعد ذلك فالقارئ يملك خيالًا، ويسهل تصور ما يحدث عند لقاء امرأة ناضجة مفعمة بأسرار الأنوثة مع ذكر مفعم بالهرمونات.

كنت قد وعدت بأن شيئًا لن يحدث بينهما، وتكلمت عن الأخوية كثيرًا.. لكني كنت واهمًا وساذجًا طبعًا. ربما هو عدم فهم للطبيعة البشرية، وربما لأنني افترضت أن هناك قيمًا يمكن أن تصمد في هذه المباءة.. قيمة الأخوية مثلًا...

كنت أحمق.. وعلى كل حال قد انتهى دور «الراوي العليم بكل شيء» في الأدب منذ زمن.

لم يكونا يتكلمان.. الرغبة والتوتر أذهلاهما عن الكلام.. هذه

لذة محرمة.. لذة محرمة جدًّا، لذا كان توترهما عظيمًا وشهوتهما أعظم... ومن الأرض السوداء تنبت الفاكهة الأشهى.

أدرك عباس شيئًا واحـدًا.. هذه الأرض لم ترتوِ منذ زمن.. لم ترتوِ منذ أعوام.. لقد تركها المزارع تتشقق وتجف وتتلف في ضوء الشمس، وهكذا أدرك حقيقة أخرى: غالبًا تدهور صلاح كل هذا التدهور بسبب الشم.. يقول إنه لا يفرط في الشم لكنه يكذب.

أما هي فعندما استطاعت الكلام أخيرًا كانت تمتدحه كأنه هارون الرشيد أو هرقل.. تلعب دور المقهورة التي لا قبل لها به، لوعة وألم حتى لتوشك على البكاء.

هذا شيء غريزي يتعلمنه من دون تعليم.

سألته همسًا وهي تتناول لفافة التبغ من بين شفتيه وتدسها في فمها:

ـ ماذا فعلت مع أم بلبل؟

ـ مَرَة مجنونة.. ابنها حرق قدمه، فما ذنبي أنا؟ لكني هربت من لسانها السليط.. أخذته إلى المستشفى من أجل الأخوية.

ـ حضرت جنازة الحلاق؟

ـ كنت نائمًا.. لم أحبه على كل حال، ولو كنت متيقظًا لما ذهبت.

مدت سبابتها تداعب أرنبة أنفه:

ـ آه منك يا قاسي القلب!

رفع حاجبه في حنكة بمعنى أنه قاسٍ فعلًا... وبدأ فاصل جديد.

أخيرًا أشعل لفافة تبغ أخرى ثم وثب إلى الأرض، وأغلق زمام السروال وفتح الباب.

قالت له في لهفة:

ـ فلتبق فترة أخرى.

ـ صلاح قد يعود في أي لحظة.

هذه المواجهات هي التي تنجب جرائم القتل.. الزوجة والعشيق والزوج الممزق الموضوع في أكياس. لن ينزلق لهذه الخانة المظلمة إلا مضطرًّا.. لو انزلق فهو يعرف النهاية ويعرف أنه سيفتك بصلاح، فهو الأقوى والأشرس.. لكن معنى هذا أولًا أنه سيفقد شريكًا مهمًّا، وحماصة سيعرف على الفور.. حماصة يعرف كل شيء بدقة.. وسوف ينتقم.. لو كان عباس أفضل حظًّا لقبض عليه البوليس أولًا.

لهذا كله امتنع عن إطالة هذه اللذة، وراح يركض فوق القضبان مبتعدًا ومذاق شفتيها الطري على شفتيه.

* * *

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ كل ليلة عندما تغرب الشمس، وعندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك، وعندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

أمام ورقة جريدة تفوح منها رائحة سمك قوية، جلس عصام ينهي العشاء.. في الحقيقة هو ليس في حال سيئة.. يأكل طعامًا جيدًا وينام جيدًا ويتخلص من الضغط الجنسي، لكنه يفتقر إلى شيء مهم: الخلق.. الاكتمال.

لقد جاء إلى العالم حاملًا رسالة غامضة وعليه أن ينشرها كالرسل في كل مكان، لكنه لا يعرف كنه هذه الرسالة حقًّا. النضوب يداهمه بلا توقف.. قصة الدحديرة تتحرك في بطء شديد.

هذا يحزنه.. هذا يشعره بالعنة والافتقار إلى الخصوبة.

انتهى من الطعام، فلف الجريدة ووضعها في كيس بلاستيكي، وغسل يديه وأعد بعض الشاي الثقيل. في هذا الزمن الأسود صار من الممكن أن تزيل رائحة السمك بأن تغسل يدك مرة واحدة. في الماضي كان عليك أن تغسل يدك خمس مرات كي تتخلص من الرائحة.. كأنك كنت تأكل «يورانيوم» مشعًا لا سمكًا. اليوم كل شيء صناعي وملفق ومؤذٍ، لكنه يرفض أن ينشغل بهذا.. لربما لو ترك لنفسه العنان لبدأ يرثي لأن الفراولة لم تعد تقلب رائحة البيت. لن يفعل هذا. أغلق النافذة التي توشك على أن تطيره والتي يتسلل منها هواء البحر اللحوح الفضولي، وأشعل لفافة تبغ وجلس يفكر.

ما زالت عفاف هي المشكلة.. ما زالت عفاف هي اللغز.. لو استطاع أن يخترق رأسها لوجد القصة تنتظر هناك جاهزة لا ينقصها إلا بعض علامات الترقيم.. مكتملة فلا ينقصها إلا أن يصبغها حبرًا.. هل تذكر كلام «مايكل أنجلو» عن تمثال العبد الحبيس داخل الصخرة بانتظار إزميل يحرره؟ كان يفكر في قصته بذات الطريقة.. هي مكتوبة فعلًا وجاهزة للطبع.. فقط يجب أن يعرف ما تعرفه عفاف.

سيجد الكثير من العسر في العودة إلى الدحديرة.. سوف يقابله جمال، وجمال ليس من الطراز الذي يضحك ويربت على كتفه ويقول: عفا الله عما سلف.. لا، لن يفعل هذا.. على الأرجح ستكون هذه نهايته فعلًا.

أمثال جمال.. القادمون من طبقته.. الذين يبدون مثله.. أولئك مولعون بالغضب ومولعون بالتمادي لأقصى حد.. يفخرون بعجزهم عن ضبط النفس وعجزهم عن كظم الغيظ أو العفو عن الناس.. مولعون بقطع الرقاب وطعن البطون وإلقاء ماء النار على الوجوه.

أمثال جمال يستحقون أن تبتعد عن الدحديرة.

* * *

في الوقت الذي كان عباس فيه بين أحضان صابحة، كانت أشياء مريبة تدور عند المقبرة.

كان علاء هناك ومعه جمال الفقي.. وكان اللحاد المسن يزحف خارجًا من الفتحة التي صنعها في التربة، وقد بدت ساقاه

الرفيعتان الخاليتان من الشعر كأنهما ثعبانان بلون اللحم يتسللان إلى المقبرة.

ضوء الكلوب يتوهج باعثًا إضاءة كئيبة موجسة، وشعر جمال بقشعريرة حقيقية. معظم هؤلاء الفتوات الذين لا يخيفهم شيء في عالم الواقع يتطيرون بشدة ويخافون الموتى جدًّا. علاء كان قد أفرغ مثانته خمس مرات.. ويبدو أنه تسلح بالبيرة قبل القيام بهذه المهمة القذرة.

يسمع صوت من يئن أو يتنهد فيرتجف.. من أين يأتي هذا الصوت؟ ألم تكن هذه هي التربة التي دفن فيها إبراهيم أبو غصيبة؟ لماذا يئن إذن؟

هناك من بعيد عيون تتوهج في الظلام.. غالبًا هي عفاريت.. يصعب الافتراض أنها عيون بنات آوى أو كلاب.. هذه أشياء تقال للأطفال حتى لا يخافوا، لكنها بالفعل عفاريت.. الدقة العلمية تقضي بأن تعترف بهذا.

الرائحة كريهة جدًّا.. رائحة كلاب ميتة لا أكثر ولا أقل.. وهذا يدفعك إلى التفكير في مصير الـ...

اللحاد يخرج زاحفًا ويتنفس بعمق.. وفي يده الكلوب الصغير الذي زج به في الفتحة.

جلس القرفصاء وجفف العرق على جبينه، ولم ينتظر علاء حتى يسأله:

ـ هيه؟

قال الرجل بصوت جعلته الشيخوخة رفيعًا كأنه يتعمد الإضحاك:

ـ هو الكفن.. لا شك في ذلك.. لم يتمزق. لكن هذا ليس دليلًا على شيء.

ثم اتسعت عيناه في خطورة وأردف:

ـ بيني وبينك لم يكن هذا هو المكان الذي تركت الجسد فيه.. أعتقد أنه تحرك مترًا أو مترين نحو الباب.. أعتقد أنه حاول تحرير يده فلم يستطع.

ارتجف علاء وفقد التحكم في يده تمامًا.. لا يريد أن يستعيد الصورة أو يتخيلها. لكن التفسير سهل على كل حال. هذا اللحاد المصاب بالرمد والعشى الليلي لا يلاحظ أي شيء ولا يمكن الاعتماد عليه.. مستحيل أن يتذكر الفارق بين موضع وموضع.

ـ أنت تخرف!

ـ وأنت تشك.. لهذا دفعت لي.

ـ وكيف نجد اليقين الذي ليس بعده يقين؟

بصق الرجل على الأرض وأفرغ أنفه ثم مسحه بكمه وقال:

ـ لا يوجد يقين ما دمت حيًا.. من الممكن أن أكون مخطئًا.. وقد أكون مصيبًا.. لكن هناك حقيقة مؤكدة لا شك فيها؛ هي أنه قد مات.. دخل القبر ميتًا أو مات من الجوع ونقص الهواء

أو الفزع.. أو مات بغيبوبة سكري أصابته في القبر.. لا يهم يا برنس.. النتيجة واحدة.. نحن قمنا بما يجب أن نقوم به.

قال جمال في اتعاظ وهو يطرق برأسه:

ـ سبحان الله.. هو كان يحب القبور والموت والأكفان.

ـ إذن مات سعيدًا.

كاد علاء يجن.. هذان مخبولان بلا شك.

صورة مصطفى الذي يصحو فجأة في القبر ليجد أنه في الظلام والرائحة النتنة، وقد قيدوه بأدراج من قماش الكفن، وذقنه مكبلة بشريط.. يصرخ.. يحاول الزحف.. يضرب برأسه الباب.. لكن لا جدوى.. تمر الساعات من الجوع والظمأ وربما الاختناق و...

هذا هو الجنون ذاته.

دعا الله أن يكون اللحاد نصابًا أو أحمق.. هذا هو الحل الوحيد الذي يُبقي له توازنه العقلي.. وفجأة أفلتت ثعابين الجنون التي أوصد عليها باب روحه.. انطلق يركض في الظلام وسط الكلاب العاوية والحجارة والصبار والريحان والشواهد الحجرية والرخامية، وهو يصرخ بلا توقف:

ـ عم مصطفى ى ى ى!

١٨

انفجرت الثورة.

أنت تعرف التفاصيل فلن أطيل عليك في سرد أحداث تعرفها جيدًا. فقط نقول إن أحدًا من رجال الدحديرة لم يكن يتوقعها ولم يسمع عن موعدها.. الكل كان يوقن أنها ضرورية وأنها كالحامل المتمة، لكن لم يكن بوسع أحد أن يتنبأ.. وعندما قامت الثورة كانت الشرارة من شباب الطبقة الوسطى الذين يجيدون استعمال الكمبيوتر، ويعلقون صورة «جيفارا» ويحبون أغاني محمد منير وألحان عمر خيرت. فلو بدأت الثورة من الدحديرة لسال الدم في كل مكان. يكفي أن يذهب حماصة ليشارك.

يوم الثلاثاء لم يكن واحد من الدحديرة في ميدان التحرير، لكن الجميع ذهبوا يوم الجمعة. والحقيقة أن القاهرة لم ترَ يومًا كهذا قطُّ.. كان الضجيج يتصاعد إلى عنان السماء ومعه الغاز المسيل للدموع.. وفيما بعد سوف يعرف الجميع موضوع الطلقات.

كان الجميع يتحركون في ظلام صنعته الدولة من حولهم، فانقطع الاتصال الهاتفي المحمول، وانقطع الإنترنت، وصار من الصعب أن تتابع معظم القنوات الغربية.

كانوا يستضيئون بشيء واحد هو الغضب.. الغضب الذي تم قمعه أعوامًا بلا نهاية.

لقد انهالت عليهم في الأعوام الأخيرة عشرات الصفعات بل مئات منها. وفي كل ليلة يعود الواحد منهم برجولته المقهورة فيحاول أن يقهر بما بقي منها جسد امرأته، لكن الحقيقة أن عددًا منهم لم يستطع خداع النفس.

كيف تبصر الحب في عين امرأة تعرف أنك لن تحميها؟

كانت العنة هي لغة العصر وهي اسم اللعبة. العنة.. القهر.. النضوب.. اليأس.

كل طاغية جاء ليسيطر على مصر قال إن السوط هو اللغة التي يفهمها المصري، وقال إن المصري يحتاج إلى فرعون يقهره فيبني الأهرام.. هذه العبارة الخادعة قادت طغاة كثيرين إلى مصير أسود. اللحظة التي يفترض فيها الطاغية أن هذا الجسد الذي يكيل له الضربات ميت، هي غالبًا ذات اللحظة التي ينهض فيها الجسد للانتقام.

عندما نهض الناس هذه المرَّة بدا واضحًا أنهم لن يتراجعوا، وأن غضب السنين المخزون وجد قناته التي يجري فيها، وتوحدت كل

طبقات الشعب وكل طوائفه على كراهية رجل واحد.. على نبذ نظام واحد.. على الاشمئزاز من مجموعة وجوه تملك كل شيء ولا تنوي الرحيل أبدًا. وعلى شاشات التلفزيون انتظر الناس كلمة من أحد المسؤولين فلم يمنحوها.. إلا متأخرًا جدًّا مع بيان مفعم بالقرف ألقاه صفوت الشريف.. وإلا من نظرات حادة مليئة بالكُره والمرارة يرميهم بها عمر سليمان.

ومن مكان ما وِلد الهتاف الشهير: «الشعب يريد إسقاط النظام».

يقال إنه تردد في تونس أولًا، وسرعان ما التقطته الحناجر بإيقاعه السهل...

«الشعب يريد إسقاط النظام».

* * *

حقًّا ليس بوسعي أن أعرف متى تخلى حسين عن الطبنجة.

كان قد تدرَّب بها عدة مرات في الخلاء. أطلق خمس طلقات على علب المياه الغازية الفارغة، فأصاب اثنتين.. أدرك أن الأمر ليس بهذه الصعوبة إذا أمسك المسدس بكلتا يديه لحظة الإطلاق حتى لا يهتز، وإذا ما اقترب من المسؤول جدًّا بحيث لا يوجد مجال خطأ.

كان غارقًا في هذه الأفكار، يستعد لأهم عمل في حياته عندما بدأت أحداث الثورة.

كان مارد عملاق يحتشد.. يحتشد قطعة قطعة وشلوًا شلوًا في ميدان التحرير، وفي كل يوم كانت صورته تبدو أكثر وضوحًا واكتمالًا. وما كان حشدًا من شباب غاضب تقتحمهم العين صار هياجًا شعبيًا مخيفًا، فثورة تتزلزل لها الأرض.

وللمرة الأولى منذ عقود ينكمش العسس والانكشارية وبصاصو الوالي ويفرون.. تنقلب عرباتهم وتحترق.

لم يكن الأمر يتعلَّق بالقضاء على مسؤول هنا أو هناك. لم يكن يتعلق بإزالة ترس تالف.. كان يتعلَّق بنسف الماكينة كلها والبدء بنظام جديد على أسس صحيحة. غدًا لن يكون هناك شباب جائعون بلا مسكن يدورون على المقاهي يعرضون الهراء الذي صُنع في الصين. غدًا سوف يتزوج الشباب في سن مبكرة بدلًا من التمرغ مع خيالات الجنس المريضة خلف الأبواب. غدًا لن يحقن أحد الدجاج ليزداد وزنه. غدًا لن يبتلع أحدهم «الترامادول» ليهرب من واقع لا أمل فيه.

سوف تطير رقاب كل المسؤولين الأوغاد، وكل من جعلوا حياتك جحيمًا، وسوف تقف أنت في وسط الميدان تصرخ مطالبًا بالمزيد.

هذه الطبنجة تقدم قطعة صغيرة جدًا جدًا من الحل، بينما العملاق الهادر في ميدان التحرير يملك الحل كله.

يملك الغد.

يملك التغيير.

يملك الإصلاح.

يملك الحياة.

اليوم أنت جزء من هذا الوجود العملاق الهادر. يدك ليست يدًا واحدة بل مليون يد.. قلبك ليس قلبًا واحدًا بل مليون قلب.. إرادتك ليست إرادتك وحدك بل مليون إرادة.

أنت لا تقهر.. لا تقهر.

أنت في مصاف أبطال الأساطير، ومن سمع أن بطل أسطورة كان يحمل طبنجة حقيرة صُنعت في ورشة خراطة من مسدس صوت؟

كان يعرف أن اللجان الشعبية تفتش الداخلين إلى الميدان، لذا اتجه إلى صفيحة مخلفات وتخلَّص من اللفافة التي يحملها، ثم مضى يشق طريقه بين صفوف الشباب المحتشدين والذين راح بعضهم يتحسس جيوبه بحثًا عن سلاح.

أن تُبدل مهنتك من قاتل إلى ثائر لأمر مغرٍ حقًّا.

هكذا دخل حسين إلى الميدان.. إلى الكعكة الحجرية.

وهناك جلس وسط شباب مثله، وتبادلوا السجائر وعلب الكشري، وضحكوا كثيرًا على الإعلام الذي وصفهم بأنهم جواسيس غربيون يأكلون الكنتاكي ويتقاضون أجرهم بالدولار.

أنت لست وحدك.

هنا أكثر الأماكن أمنًا على وجه الأرض.

وعرف أن عليه أن يجلب عفاف معه لترى هذا المكان وهذه المعجزة.

* * *

أحبت عفاف التحرير كثيرًا.

للتحرير مغناطيس لا شك فيه، يجعل من يزوره لبضع دقائق يبقى فيه إلى الأبد، وكان من الواضح للجميع أن التغيير قادم بسرعة.

المعجون لا يعود إلى الأنبوب أبدًا مهما حاولت.. وقد خرج المعجون.. كل شيء يقول هذا مهما تظاهر النظام ورجاله بأن المعجون باقٍ في مكانه.

عفاف كانت تهتف.

تهتف ضد كل شيء تحداها وأفقرها وعذبها في حياتها.

عفاف فقيرة.. عفاف تحيا بلا أمل.. عفاف تحتاج إلى البيت والزوج.. عفاف بلا أحد يدق الباب.. عفاف لا تريد الحياة.

كانت كل هذه الأفكار تتلخص في عبارة واحدة موقعة: «الشعب يريد إسقاط النظام».

يدها تتمسك بأنامل حسين، وصدرها يعلو ويهبط. تتحسس أناملها المسبحة المعطرة وتعد حباتها لا شعوريًّا.

السبحة

السيجة

السرنجة

السنجة

كل شيء يختلط.

❊ ❊ ❊

وكان عصام هناك في الميدان.. لم يكن مستجدًّا وبالتأكيد هو قد ألف هذا كله، وهو لم ينسَ أنشودة الكعكة الحجرية. يعتبر أنه خبير مظاهرات، ويعرف بالضبط متى تظهر عربات الأمن المركزي، ومتى يبدأ رش الماء، ومتى يستعمل الغاز المسيل للدموع، ومتى يبدأ الضرب.. يعرف فرق الكاراتيه قبل أن يتبينها أي متظاهر آخر. يعرف هذا السيناريو جيدًا.

لسبب ما عندما يثور المصريون يذهبون إلى ميدان التحرير، وعندما يلتاعون يركضون إلى النيل. هو رأى المصريين يركضون نحو النيل وهم يصرخون عندما تنحى جمال عبد الناصر وعندما مات:

يــا نــاصــر يــا عــود الفــل   من بعــدك هنشــوف الــذل

نعم رأينا الذل، لكن هل كان رحيل عبد الناصر هو السبب الوحيد؟

هو جلس مع الطلبة في التحرير في تلك الأيام التي يرفض الكلام عنها. لماذا يخجل؟ لأنها جزء حميم جدًّا من ذاته.. جزء حساس منها. عندما قرأ «صورة دوريان جراي» لـ«أوسكار وايلد»، وجد

أن الرسام «باسيل» يأبى أن يرى أحدٌ لوحته التي رسمها لـ«دوريان جراي»، والسبب أنها تحمل الكثير جدًّا من روح الرسام. هذا مقطع لم يفهمه كثيرون ممن قرأوا الرواية، لكنه كان يفهمه ويحسه جيدًا.. ولهذا لم يكتب قطُّ عن تجربة التحرير هذه.

كان يشعر أنها أيام بلا جدوى.. انهالت الضربات على الجدار حتى تهشمت الأيدي فلم يسقط ولم ينهر. ازداد الطغيان قوة واكفهرت السماء أكثر. لم يعد على يقين من شيء.. فيما بعد قرأ تحليلًا سياسيًّا يرى أن مظاهرات الخبز هي التي قادت السادات لزيارة القدس.

هل زيارة القدس جريمة سياسية شنعاء؟ لو كان الأمر كذلك فالمظاهرات كانت خطأ فادحًا.

هل زيارة القدس عمل ذكي سبق عصره؟ إذن كانت المظاهرات مفيدة.

لو كانت جريمة أو عملًا ذكيًّا فالنتيجة واحدة، وهي أن مصر تنهار في كل المجالات منذ ثلاثين عامًا.. لا يرى بصيص نور، ولا يرى القاع.

ثم فجأة حدثت الثورة، وللحظات بدا أنها ناجحة جدًّا، وللحظات شعر الجميع بنشوة لا توصف...

بدا له كأن الثورة جاءت من سماء صافية.. حاول أن يرى فيها بصمات جيله فلم يستطع. أينما نظر رأى وجوهًا شابة نضرة لا تمت لجيله بصلة.

تمنى أن يقول إن ضربات جيله هي التي أوهنت السد ثم جاءت الضربة المائة لينهار كل شيء، لكنه لم يستطع، ولو قالها لما صدقه الثوار.

هكذا لم يجد سبيلًا سوى أن ينضم للهاتفين في التحرير، ويمضي معهم.

في النهاية هي حنجرة تضاف إلى حناجرهم.. تبتعد أنت عن الصورة المكونة من آلاف النقاط المتراصة، فترى الصورة الهائلة المخيفة لعملاق غاضب.

يعرف يقينًا أن عفاف هنا.. ربما نوال هنا.. ربما حسين هنا.. ربما جمال الفقي هنا.. ربما علاء هنا.. ربما إلهام هنا.. ربما عصام نفسه هنا.

١٩

الحق أن ميتة جمال الفقي لم تختلف كثيرًا عن ميتة الكلاب الصغيرة التي كان يغرقها.

ربما يحلو لك أن تجد في الأمر عدالة شعرية ما، وربما يتغلب ضعفك البشري فتتخيل اللحظات الأخيرة التي مر بها. عن نفسي لا أحس أي شفقة نحوه، وأرى أنه استحق كل لحظة ذعر أو ألم عاشها.. دعك من أن اختفاءه جعل عصام قادرًا على العودة إلى الدحديرة من جديد.. قادرًا على استكمال قصته.

أنت تعرف أن جمال يسكن في بيت ضيق آيل للسقوط مكون من طابق واحد، جوار محل الكاوتش الموجود على ناصية النوساني. جمال مطلق منذ أعوام وليس له أبناء، وكان صديقه إسماعيل يتردد عليه من وقت إلى آخر ليدخنا بعض الحشيش.

لم يفتح جمال لإسماعيل ثلاث ليال متعاقبة، وبسؤال صاحب محل الكاوتش أكد أنه لم يرَ جمال يخرج أو يدخل منذ أيام.

في الليلة الرابعة خرج إسماعيل.

كان كعادته يحمل السنجة العملاقة في يد والعصا في يد أخرى. الشوارع خالية مظلمة ما عدا نباح الكلاب.. وما عدا اللجان الشعبية التي تجلس حول النار.. دائمًا هناك إطار قديم مشتعل يلتف حوله الساهرون وهم يدخنون.. كل منهم يحمل شيئًا.. ربما عصا أو سكينًا أو سنجة أو مطرقة.. أي شيء...

لا صوت يقطع الصمت سوى مرور ميكروباص مسرع، والصراخ.. ثم يتوقف الميكروباص لأن هناك حاجزًا من حجارة يسد الشارع، وفي الغالب يكون أعضاء اللجنة قد لحقوا به وأوسعوه ضربًا.. ثم تتكوم جثة على الأسفلت...

النفوس متوترة والعنف هو السيد، وعليك ألا تأتي بأي حركة مفاجئة أو مريبة.

هكذا مشى إسماعيل وسط هذه الحواجز والكمائن... وكان يعرف أن معظم هؤلاء لا يدافعون عن الأمن بل يخرقونه. في «دحديرة الشناوي» لا يمكن أن تتصور أن كل الناس ملائكة، وبالتأكيد خرج الوحش المدعو حماصة من مكمنه.. وبالتأكيد هو يعيث في الأرض فسادًا.. عندما كانت الداخلية بكامل قوتها لم يكن هناك من يتصدى لحماصة، فماذا بعد أن فرغ الإطار المسمى الداخلية؟

حماصة يمشي في الأزقة الآن.. لن يرى عابر سبيل إلا ويذبحه.. لن يرى رجلًا مهندمًا إلا ويسلبه ماله وثيابه.. لن يرى فتاة إلا ويغتصبها

مرارًا.. وهو في هذا كله تنين أسطوري تتصاعد منه أبخرة الحشيش ويزأر.

حماصة الآن يعود إلى عنصره الطبيعي...

وسط هذا كله شق إسماعيل طريقه إلى بيت جمال، كان مرهق الأعصاب وهو يصعد في الدرج كريه الرائحة ذي الدرجات المحطمة والمهشمة...

ضرب على الباب مرارًا بلا جدوى.

كانت الرائحة قوية تختلف عن رائحة القذارة.. هناك رائحة قذارة وهناك رائحة موت.. هذه رائحة موت قوية جدًّا.

هكذا رفع قدمه وركل الباب بقوة فانفتح.

أضاء مصباحًا واهنًا فاستطاع أن يرى الغرفة الوحيدة هنا، وكان بابها مفتوحًا والرائحة قوية جدًّا.. عندما تجاسر ودخل رأى مشهدًا يصعب نسيانه أو فهمه. جمال مقيد الرسغين إلى الأمام ويبدو أنه كان يحاول نزع الشيء عن رأسه، لكن كان هذا أقوى منه. أما رأسه نفسه فيحيط به كيس ضيق من المشمع.. وخلف الكيس يمكن أن ترى الوجه المحتقن الذي ارتسمت عليه العروق كأنها شجرة.

راح قلب إسماعيل يدق في هلع وغادر المكان مسرعًا وهو يتعثر، وقرر أن يصمت تمامًا. هو لم يأتِ ولم ير شيئًا.

فيما بعد عرف عصام بالأمر فوجده يكمل الصورة في ذهنه.. جمال الذي فقد قدراته الرجولية يجاهد كي يستعيدها، وكأي سفاح وجد الشهوة

في الأعمال السادية والماسوشية.. كان يغرق الكلاب الوليدة لكن هذا لم يكن كافيًا.. ثم اتجه إلى تعذيب نفسه بـ«الإسفكسيا». اكتشف الطريقة من تلقاء نفسه ولم يقرأ عنها بالتأكيد.. وبدأ يقيد رسغيه ويضع الأكياس على رأسه حتى يوشك على الاختناق، ويرى الموت فعلًا ومعه ذروة الشهوة، فيمد يده ويمزق الكيس ويشهق مالئًا رئتيه بالهواء. لكن كتب الطب الشرعي تمتلئ بهذه الصور على كل حال، وبالذات لهؤلاء الذين اختنقوا بسرعة فلم يجدوا القدرة على انتزاع الكيس في اللحظة المناسبة.

لم يدر جمال أنه سينضم إلى هذه الصور النادرة التي يحتفظ بها كل طبيب شرعي كأنها الدرر...

لم يدر أن الكيس سيكون محكمًا لصيقًا بوجهه.

لم يدر أن يده ستضعف ولن تقدر على أن تلمس الكيس.

لم يدر أنه سيموت كالكلاب الصغيرة المختنقة وحيدًا في الظلام، بينما اللجان الشعبية تملأ الشارع، وبينما ميدان التحرير يغص بالزوار، وبينما حسين عبد الرحمن ينام هناك أمام الجامعة الأمريكية، وبينما عصام يفترش الأرض عند مدخل المتحف المصري، وبينما عباس الدلجموني يلثم جذور عنق صابحة، وبينما عين عم مصطفى تنفجر مع التحلل، وبينما علاء أبو فرحة يفتح زجاجة بيرة أخرى شاعرًا بأن مثانته توشك على التمزق، وبينما عفاف راقدة تنظر إلى السقف المتشقق مفكرة في أحداث يومها.

* * *

هذه كانت فترة نحس تمر بها الدحديرة.

في زمن وجيز فقدوا إبراهيم وفقدوا مصطفى المزين ثم جاء جمال. فكر علاء في هذا وهو يقف في اللجنة الشعبية ممسكًا بالسكين العملاقة التي جاء بها من معمل المخللات. لو كان هذا قد حدث قبل الثورة لاهتزت الدحديرة.. لكن هذه تبدو الآن مجرد رتوش.. فئران تعبث وتموت في كواليس المسرح، بينما المسرحية الكبرى تدور الآن على الخشبة والكل يراقبها متسع العينين ذاهلًا.

لقد رحل إبراهيم وهو يقيء دمًا.

رحل مصطفى المزين والسكري يعبث في دمه.

رحل جمال الفقي وكيس بلاستيكي حول رأسه.

لكن أحدًا لم يهتم كثيرًا.. لم ترتج الأرض ولم تسقط النجوم.

علاء لا يعرف طه حسين، ولا يعرف أن العملاق العبقري غادر عالمنا في ذروة حرب أكتوبر ١٩٧٣، لهذا كان نصيبه عمودًا في بعض الصحف.. ولو حدث هذا في غير وقت الحرب لارتجت الصحافة ووسائل الإعلام ارتجاجًا. لكنه رحل وسط طلقات المدافع والطائرات المحترقة وهدير الدبابات، فلم يحدث رحيله الصخب المتوقع. بالطبع كان إبراهيم ومصطفى المزين وجمال أقل جدوى للعالم بكثير.

دنا منه علي زميله في معمل المخللات. ناوله سيجارة محشوة وجلس القرفصاء جوار النار المشتعلة.

لن يحدث شيء هذه الليلة.. هذا واضح.

كلهم يخافون حماصة، لكن كل الأوغاد والأشرار والبلطجية يخشونه بنفس القدر.. لا أحد يجسر على القدوم هنا.

سحب من السيجارة نفسًا ثم أطلق سحابة عميقة.

كان علي يتفحص جهاز الهاتف المحمول الصيني الذي يحمله، ثم قرب الشاشة منه.. هنا أدرك علاء معنى ما يراه.

هذه الصور تم التقاطها له منذ ثلاثة أيام.. بالتحديد في الخرابة.. بالتحديد مع صفاء. كان قد انفرد بها لنصف ساعة. الكل ينفرد بها.. والطريف أنه لم يرَ صفاء قطُّ وهو معها، بل كان يتخيل عفاف.. عيني عفاف وقوام عفاف وضحكة عفاف وبشرة عفاف.. وكان الوقت عصرًا والمكان خاليًا والتصوير ممكنًا.

لم يدر أن هناك من التقط له هذه الصور.. لا بأس بها على الإطلاق.

أطلق سبة:

ـ يا ابن الـ....

أطلق علي ضحكة جديرة بالحشاشين، ثم بصق وقال:

ـ سوف أفضحك وأفضح أهلك بهذه الصور.

لكن علاء أخرج هاتفه المحمول وتوسل لعلي:

ـ هلم.. أرسلها إليَّ.. هذه الصور!

ـ هل تمزح؟

ـ لا.. لقد راقت لي.. أريدها!

نظر إليه علي في حيرة وذهول.. فقط في «دحديرة الشناوي» يمكن أن تلتقط صورًا فاضحة لأحدهم.. صورًا تصلح للابتزاز، ثم تكتشف أنه فخور بها جدًّا!

هكذا جلس الرجلان يدخنان ويتبادلان هذه الصور الفاضحة التي يراها علاء مدعاة للفخر. كان ينوي أن يريها للجميع دليلًا ثابتًا على الفحولة وعلى أنه بارع و«صايع». بالنسبة إلى معظم الناس ليست لدى هذا الفتى موهبة أكثر من براعته في تقطيع المخلل وفي شرب عدة زجاجات من البيرة، لكنهم اليوم سيكتشفون أنه فحل كذلك.

كانا مستمرين في هذا عندما تصلب علي.

همس في رعب:

ـ خذ الحذر.

رفع علاء عينيه فرأى هؤلاء الثلاثة قادمين مدثرين في الظلام.. يرى لفافات التبغ تشتعل كالجمر في أفواههم، ويدرك أنهم ضخام الجثة، وأنهم لا يخشون شيئًا.. بالواقع يخشاهم الناس وهم لا يخشون أحدًا.

حماصة!

هذا الذي يمشي في الوسط هو حماصة بلا أدنى شك.

لقد رآه ست مرات في حياته، وفي كل مرة كان يبدو مختلفًا عن المرات الأخرى.

نهض الرجلان في توتر ورعب، لكن الرجال الثلاثة لم يبطئوا السير. كانوا قادمين من مكان ما.. ذاهبين إلى مكان ما.. هكذا الأمور. غالبًا يقصدون السرجة كذلك.. والأمر جدي خطير لا يحتمل الإرجاء.

فقط لوح الذي هو حماصة بيده:

ـ سامو عليكم.

ومعناها بالطبع «سلامو عليكم» بلهجة الشوارع.. لهجة الخشن الذي لا وقت لديه لنطق حرف رقيق مثل «اللام».

ثم غاب الرجال قبل أن يجد أحد المذعورين الفرصة للرد.

* * *

إبراهيم أبو غصيبة كان كذلك في حال سيئة.

عندما هبطت طائرته الصغيرة البيضاء من طراز «بيتشكرافت بونانزا» في ذلك المطار الصغير، كان شاهين ينتظره.

نزل إبراهيم ومعه ناردين.. أشعل سيجارًا غليظًا واتجه إلى الاستراحة.. يريد شرب كوكتيل بأي ثمن.

شعر ناردين مبلل بعد الحمَّام الذي أخذته في الصباح. هذا الإيحاء الريان الجميل بعد ليلة حب ينعش روحه، لكن وجه شاهين الكالح وتوتره يطردان أي استمتاع.

- هي لم تصل لدرجة ثورة بعد.

قال إبراهيم وهو ينظر إلى الأخبار على شاشة هاتفه المحمول:

- أعداد غفيرة.. ما الذي يمنعك من اعتبارها ثورة؟

- لم تفرز مطالب بعد.. كراهية مبارك وحدت بين كل هؤلاء وقربت ميولهم. هم جميعًا لا يريدون مبارك ويتمنون الخلاص منه، لكن لا قائد لهم. لا مطالب أخرى لهم.. هم غاضبون فحسب.

فكر إبراهيم قليلًا.

نظر إلى أنامله المتعرقة والرجفة في كفه.. هذا الكابوس اللعين الذي يزوره منذ فترة ويرى نفسه فيه فقيرًا مريضًا يقيء دمًا، ويحمله الرعاع إلى المستشفى العام حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة. هذا حلم حقيقي بشكل مروع.. له رائحة وطول وعرض وارتفاع.. ترى أيهما أصدق؟ هل هو ثري يحلم بالفقر.. أم هو فقير ميت يحلم الآن في قبره؟

تذكر في طفولته عندما مر مع أبيه جوار المقابر ليلًا.. سمع صوت أنين.. قال الأب: إن الموتى يحلمون الآن. أرعبته الفكرة كثيرًا لكنها صارت من مُسلَّماته وما زال لا يعرف يقينًا إن كان ميتًا يحلم بهذا كله أم لا.

على كل حال يجب أن يواصل الحلم بقواعده.

الحلم الذي يوشك على أن يصير كابوسًا.

هذه اللحظة قد رآها في كوابيسه مرارًا. ثورة الجياع.. المقصلة في ميدان التحرير.. الموت للأرستقراطيين.. رأى ذات مرة فيلمًا يدور في فرنسا وقت الثورة وأصابه الهلع.

قال شاهين وهو يصب لنفسه كأسًا أخرى:

ـ سوف تنهال الشكاوى على النائب العام. بلاغات.. بلاغات.. بعض الطلقات سوف يمر جوار أذنك.. البعض فشنك.. البعض لن ينطلق. لكن بالتأكيد هناك طلقة ستجد طريقها إلى قلبك.. وسوف تجد نفسك واقفًا أمام القاضي تقسم على أنك بريء.

ـ والحل؟

نظر شاهين إلى السماء التي تبدو خلف الواجهة الزجاجية ورشف رشفة من الكأس وقال:

ـ الفرار.

ـ إلى أين؟

ـ بعض الناس يفرون إلى تحت.. بعضهم يفرون إلى أعلى.. بعضهم يفرون إلى بريطانيا.

قال إبراهيم في شمم:

ـ أنا لن أفر من مجموعة صبية جمعوا بعضهم عن طريق الإنترنت.

ـ هذا موقف شجاع لكنه لا يساوي بصلة.. إن مصر تتغير بسرعة.. لأسوأ أو لأفضل لا أعرف.. لكنك في النهاية سوف تجد أرضًا أخرى غير التي تقف عليها الآن، وفي ٩٠٪ من الاحتمالات سوف تتعثر وتسقط.

كان إبراهيم يفكر بعمق.

لو كان قد مات فعلًا فلا مشكلة.. لن يضره شيء. لكن لو كان حيًّا وسط هذه الظروف فلسوف يظفرون به.. معاملات كثيرة له ليست نزيهة تمامًا وسوف يحلو للجميع أن يمزقوه.. إنه الحقد الطبقي والحقد الاجتماعي ولا شيء سواهما، لكنهما سيتخذان سمت البحث عن العدالة. رأى ذات مرة حماس مجموعة من القوم الثائرين للأخلاق، يحاصرون شقة فيها فتى وفتاة.. أقسم لنفسه: إن سبب الحماسة هو الحقد ولا شيء سوى ذلك.. لماذا يظفر بها هذا الفتى الرقيع وأنام أنا وحدي؟

بريطانيا.

لا بأس.. الحياة في أرض الضباب عدة أعوام ينفق فيها ما كسبه من مال، يأكل الطعمية في «أكسفورد ستريت» ويدخن الشيشة ويتواجد مع تجمعات المصريين، وتكون هذه علامة على أنه ابن بلد وأصيل.. ثم يظهر في التلفزيون بعد أعوام ليبكي قائلًا إنه يفتقد مصر أم الدنيا فعلًا.

كان يفكر.

ناردين كانت كذلك تفكر في تلك الحشود الغاضبة في التحرير. مدت يدها لتمسك بيده وقالت متوسلة:

- لن نبقى هنا.. أرجوك!

نظر إليها.

بالفعل كان يتذكر الجموع وشهوة الانتقام.. يتذكر الصراخ وهتاف «الشعب يريد إسقاط النظام». لا بد من الفرار.. لا بد.

لكن ليته يعرف هل هذا كله حقيقي أم هو نائم يحلم...

في مكان ما.. في مقبرة ما.. تحرك الفك الذي بلي تمامًا، وصدر صوت شبيه بصوت الأنين.. أثار هذا ذعر أحد المارة كثيرًا فراح يحوقل ويبسمل.

٢٠

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ كل ليلة عندما تغرب الشمس، وعندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك، وعندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

في الشقة الخاوية يفرد عصام الأوراق أمامه ويراجع البروفات. عندما يعيد البحث في كل الصور السابقة فإنه يجد الثورة موجودة تنتظر.. كأنها شبح هناك في ركن الصورة لا يلاحظه أحد، ولم يفطن أحد إلى أنه موجود. يمكنك أن تشم رائحتها في كل شيء وكل شخصية. قراءة الأوراق السابقة تؤكد شيئًا يقينيًّا: هؤلاء القوم ما كانوا ليبقوا هكذا إلى الأبد، وما كانوا ليتحملوا أكثر.

ظهورهم كانت للجدار.. وعندما تهاجم فعليك ألا تجعل ظهر

ضحيتك للجدار.. إنها تفعل أي شيء وقتها، ودفاعها عن نفسها غير متعقل وغير متحفظ.. ثمة لحظة يجب أن تتوقف فيها، ونظام مبارك لم يعِ هذه الحقيقة ولم يُحسن تبين اللحظة. كانت ثقتهم في عصا الأمن المركزي مطلقة.

بذور الثورة كانت موجودة في هذا كله.

في نوال التي تشتهي نصف دجاجة.

في حسين الذي يحاول بيع الهراء.

في عفاف التي احتفظت بجسدها لأنه سلاحها الوحيد.

في إبراهيم الذي عاش حياتين في آن.

في عباس الذي يحمل على عاتقه كيف الدحديرة كلها.

في جمال الذي...

في عصام نفسه الذي فشل في كل تجارب حياته، واليوم يحاول أن يصب فشله في زجاجات يبيعها، ويحاول أن يعتبر نفسه من أبناء الثورة مع أنه من جدودها أو أسلافها!

حتى حماصة هو جزء من الصورة الكلية...

أشعل لفافة تبغ واتجه إلى النافذة وراح يرقب المدينة الخالية.

عاد إلى المنضدة الصغيرة التي وضع عليها لفافة فيها مكرونة بالبشاميل وبعض المخللات وزجاجة ماء. بدأ يلتهم عشاءه شاردًا.

هل هو عشاء أم غداء؟ لا يذكر.. هو يأكل فقط عندما يجوع،

وهكذا قد يمر يومان أو ثلاثة من دون أن يذوق الطعام.. وقد أدرك أن معظم سراويله متهدلة تسقط منه، والحزام يحيلها إلى شيء ككيس مصرور على دراهم.

يجب أن يأكل أكثر...

يجب أن يبقى حيًّا لمدة أطول، حتى يعرف ما ستسفر عنه هذه الثورة. ثورة شعبية؟ المرء لا يرى أكثر من ثورة شعبية واحدة في حياته لو كان محظوظًا. تذكر ثوار الماضي والقصائد التي كانوا ينشدونها حول الكعكة الحجرية.. تُرى أين هم الآن؟ وماذا يقولون لو رأوا هذه المشاهد؟

* * *

عندما فرغ عباس الدلجموني من قضاء شهوته، وعندما لم تعد في جسده ذرة رغبة، لثم شفتي صابحة في نهم.. شم رائحة التبغ المختلط بالحشيش.

قالت له في وهن:

ـ لماذا لا تبقى أكثر.. أمامنا حتى الفجر؟

ـ لقد ظفرنا بالستر وعلينا ألا نختبر حظنا أكثر.

كان يؤمن أن الستر هو سبب عدم افتضاح أمره.. كأن الله يرعاه في هذا الموضوع. منذ صباه اعتاد أن يمزج اللصوصية والخيانة بالدين في مزيج غريب، وحتى اللحظة كان يردد وهو يحمل البرشام: «يا رب استر».

ثم ابتعد في الظلام لاهثًا. لقد قضت الثورة على الشرطة لكن من قال إنه يهاب الشرطة؟ هنا يوجد قانون من نوع خاص ورجال شرطة لهم طابع فريد.. قانون الغاب الذي يسود هذه البقاع أقوى من أي قانون في العالم.

فجأة وجد نفسه على الأرض. كان هناك كلب يعوي محاولًا الوصول إلى عنقه، وكان هناك نصل سيف تحت عنقه. على الوريد بالضبط...

ثم بدأ يتبين الأمور أكثر، فأدرك أن من يمسك الكلب هو حمادة.. مطرب الفرق الذي هو صهر إبراهيم.

أما مَن يضع السيف على أوردته فهو صلاح نفسه.

كان صلاح يلهث ورائحة أنفاسه لعينة، هي مزيج من البوظة والحشيش والبرشام والكفتة والشاي الثقيل. عرف عباس على الفور سبب هذا الهجوم.

في الوقت ذاته كان هناك شخص ثالث يقيد قدميه بحبل غليظ.. وشعر بمَن يقلبه على صدره ومَن يقيد يديه إلى ظهره.. لقد وقع في الشرك.

ـ الجركن.

كان البلل يتدفق ليغمر جسده.. شم رائحة الكيروسين.

كلا. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا.. هذا كابوس.

قال صلاح وهو يضغط بالسيف بقوة:

- تعبث من وراء ظهري يا ابن الزانية.. تستغفلني بينما لا تكف عن الكلام عن الأخوية والجدعنة.

بحث عن صوت يخرج من حنجرته فلم يقدر.

راح يئن كطفل.. في النهاية استطاع أن يبكي:

- صلاح.. سامحني.. مظلوم.. والله العظيم مظلوم.

وهو كلام فارغ بالطبع لا يقنع صلاح ولا يقنعه.. هذا نوع من الهذيان الذي يمارسه الذين يقفون على طبلية المشنقة والحبل حول أعناقهم. ومن مكان ما سمع صوت عود ثقاب يحتك مشتعلًا.

كان يعرف أنه سيموت قتيلًا.. لا شك في هذا.. رأى نهايته منذ عشرة أعوام. لكن أن يموت محترقًا وهو حي فهذا شيء تجاوز كل كوابيسه.

- صلاح.. اذبحني هنا والآن.. لا نار أرجوك!

قال صلاح في قسوة:

- هذه النار سوف تبرد ناري أنا.

الآن ذاب كل ثبات عباس وغموضه وفتوته.. راح يولول بصوت يمزق نياط القلب كالنساء.. لا.. بل ككلب مذعور يضع ذيله بين فخذيه.

حمادة كان يراقب المشهد في تلذذ.. كان بالفعل يتمنى أن يرى ما ستصل إليه الأمور، ويعرف أنها ستكون تجربة مثيرة يحكيها

للجميع. لقد كان هو من رأى عباس يغادر العشة في أكثر من ليلة وقد ارتدى عباءة الريبة وتدثر بثياب المتسللين.. كان من الهين جدًّا على أي طفل أن يعرف من أين جاء ولماذا يَخِف السير في الظلام.

فجأة جاء الصوت:

ـ فكوه!

تصلب الجميع...

لن يجسر رجل على وجه الأرض على أن يحاول إنقاذ عباس إلا حماصة. ومعنى هذا أن الصوت صوته، وكان حمادة يعرف مَن هو حماصة لكنه لا يذكر أنه رآه من مسافة قريبة.

كان واقفًا في الظلام بين رجلين من رجاله، وفي فمه تتراقص شعلة من لفافة التبغ التي يدخنها.. وكان غاضبًا.. الدخان قال إنه غاضب.

قال صلاح بصوت أقرب إلى البكاء:

ـ ابن الزانية يعبث بذيله مع امرأتي.

ـ لأنك.... وامرأتك.... لقد وجد الطريق لبيتك مفتوحًا، لكن أولاد الحلال جاؤوا وأخبروني في السرجة.. طار الدماغ الذي أتعبني حتى عملته.

ـ كان يتكلم عن الأخوية والعيش والملح.

قال حماصة في الظلام:

ـ نحن نتاجر في الصنف وفي كل المحرمات.. لا تحدثني عن الشرف بيننا يا برنس.. ما أعرفه هو أنني أحتاج إلى هذا الفتى، ولهذا ستفك قيوده وتجلبه لي سالمًا.. لو آذيته لاحترقت بنفس الطريقة هنا والآن.

ـ حماصة.. أنا...

ـ أنا لا أطلب الطلب مرتين.

في صمت وأسى مد صلاح ذبابة السيف وقطع الحبال الليفية التي تقيد كاحلي وساعدي عباس. ثم نهض كاسف البال يراقب غريمه وهو يتحسس معصميه وينهض.. كان عباس يحاول فتح عينيه بصعوبة من كل الكيروسين الذي أغرق وجهه وشعره.

قال حماصة:

ـ لا تنسَ نفسك وتشعل سيجارة.. نحن تجار يا برنس.. وفي التجارة لا نهتم بأمور شخصية كهذه.. انهض يا عباس وابتعد.. ابتعد عن صابحة.. وأنت يا صلاح ابتعد عن عباس.. لو أصاب مكروه واحدًا منكما لأحرقت الآخر حيًّا.

ثم أشار إلى صلاح بحركة معينة:

ـ اذهب ومزق ظهر امرأتك من الضرب.. اركلها والكم عينها.. سوف تحب هي ذلك.. وسوف تلقي أنت عن كاهلك عبئًا.

ووسط الظلام والضوء الخافت القادم من مصباح معلق في عمود

النور ابتعد الرجال ومعهم عباس... سرعان ما ذابوا في مكان ما وسط قضبان القطار المظلمة.

وجد صلاح نفسه ومن معه وحيدين يتبادلون النظرات. قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ تأخرنا أكثر من اللازم.. لو تأخر حماصة نصف دقيقة لوجد كومة ثياب مشتعلة.

فكرة صابحة بين ذراعي هذا الوغد كانت تثير جنونه. تفاصيل جسدها التي يعرفها كظهر يده يعرفها عباس كذلك.. أي عار؟! ومع هذا شعر بنوع غامض شرير من التلذذ للفكرة وأثار هذا رعبه من نفسه.. أتراه ليس رجلًا حقًّا؟

قال حمادة:

ـ من حُسن حظك أننا لم نفعل.. كان حماصة سينتقم، وانتقامه أعنف من الحرق أحياء.. بيني وبينك.. ابن الـ... هذا لن يقترب من بيتك إلى الأبد، وفي الغالب لن يقترب من أي امرأة فيما بقي من عمره.. لقد بلل ثيابه خوفًا.

* * *

الرجل سيتكلم الآن.

الرجل سيتكلم الآن.

واحتشد القوم المتشككون الغاضبون حول أجهزة التلفزيون،

ودارت كراسي المعسل مع الشاي، ولاحظ حسين أنهم لم ينسوا أن يجلبوا السلاح معهم مع أنهم جالسون في المقهى.

تكلم الكثيرون عن الرجل. لاحظ حسين أنهم لم يتخلصوا بعد من عقدة الأب.. الأب الذي عليك أن تتحمل ما يصنعه بك مهما صفعك ومهما أهانك وبصق في وجهك. الاحتجاج عليه يدل على انعدام الأصل.. وأدرك كذلك أنهم يشعرون في دواخلهم برغبة خفية في أن يفشلوا ويُعاقبوا... لقد ثاروا على الأب لهذا هم يتمنون رؤية العدالة الشعرية المتمثلة في أن يسحقوا.

أنتم مخابيل.. لقد استطاعوا ترويضكم بعد كل أعوام القهر هذه. الرجل ليس أبي ولن يكون.. أبي حاول جاهدًا أن يطعمني ويكسوني وفشل لكنه مات وهو يحاول. أبي لم يبع دمي ومستقبلي ولم يغلق أذنيه أمام توسلاتي.

يأتي خطاب الرجل أخيرًا.. يتكلم بطريقته المعتادة الرتيبة المملة التي تحيل كل حرف من اللغة العربية إلى بروفة بصقة، لكن من كتب له الخطاب ثعلب ذكي... لقد لعب بالضبط على وتر الأب المكلوم هذا...

كان حسين ينظر في رعب إلى الوجوه فيراها قد بدأت تلين، وللحظة اختلجت شفة إبراهيم الدلجموني تأثرًا.

عندما انتهى الخطاب ساد الصمت.

بعد لحظات قال أحدهم:

ـ قد حصلنا على كل شيء.. بيني وبينك الرجل عدَّاه العيب.. سوف يرحل ولن يورث الولد.. انتهى كل شيء...

ومن عدة أماكن تعالت أصوات موافقة.

أنتم مخابيل.. منذ متى يصدق هذا الرجل الذي أعطى عشرات الوعود من قبل وأخلفها؟

لن يرحل.

لن يرحل.

لن يرحل.

وبعد شهر سوف يبكي أعضاء مجلس الشعب حرقة ويتوسلون له أن يبقى فترة أخرى، وأن يأتي بابنه، وأن يصفعنا على أقفيتنا، وأن يغرق ألف عبَّارة ويهدم ألف دويقة على رؤوس مَن فيها.. وسوف يقبل على مضض ويعلن أنه لم يختر المسؤولية لكن المسؤولية هي التي اختارته.

سوف تعودون إلى دياركم فيخرج العسس من الجحور، ولسوف يمزقون كل مَن كانت له علاقة بالثورة أو امتدحها أو أيدها أو لم يشتمها... سوف يتشممون بيوتكم وأفواهكم بحثًا عن رائحة هتاف ضد الرجل.. سوف يفتشون أسرَّتكم وغرف كراركم وفريزر الثلاجة وثياب نسائكم الداخلية وضمائركم.. ولسوف يعرفون.. ولسوف يتحول ميدان التحرير إلى حلبة سيرك روماني يلقون فيها الثوار إلى الأسود.

سوف يُحكم قبضته أكثر ويعاقب الجميع، ولسوف يفهم رجاله

كل أخطاء يناير، ولسوف يوفدون الوفود إلى الولايات المتحدة لدراسة منع ثورات أخرى في المستقبل.

هذه الفرصة الذهبية لن تتكرر ثانية إلا بعد مائة عام.

عندما رأى أن الجالسين في المقهى يجلسون صامتين انطلق يجري في الشوارع.. انطلق يجري نحو التحرير..

كان يلهث.

لا يدري من أين ظهرت عفاف ولا سبب وجودها في الشارع الآن.

لا يعرف كيف اعتصر أصابعها بين أصابعه وانطلقا يجريان معًا.

كانت تلهث مثله وكانت تنشج.

لم تكن ترى الأمور بهذا الوضوح، لكنها كانت تشعر أنهم مخدوعون.. هناك شيء جميل ظفروا به ويوشك على أن يزول.

وفي التحرير بدأ كثيرون يرحلون.. بدأ الزحام يقل.. وبدأ جدل طويل حول وجوب أن ينتهي هذا كله.

في الشوارع الجانبية التي تقود إلى التحرير كان حسين يجري، وعفاف تركض معه.

كانا يقتربان.

أنتم تعرفون باقي القصة على كل حال. لا داعي لأن أحكي التفاصيل كلها.

هناك هذا الحشد من البلطجية الذين وقفوا يعترضون طريق الذاهبين إلى التحرير، ويقذفون بالشتائم بلا انقطاع. في أيديهم أسلحة بيضاء كأننا في مجزر آلي.. وهناك ذلك السلاح الذي صار رمز المرحلة: السنجة أو الكزلك.

أنتم تعرفون أن حسين تقدم في ثبات وطلب أن يفسحوا له الطريق، لكن أكبر الواقفين، وهو رجل يلبس سويترًا من الجلد المزيف وطاقية صوفية ذات أذنين تذكرك برأس الحمار، هذا الرجل هو من أصدر له الأمر بالتراجع، وشفع الأمر بشتيمة.

كان يتكلم بقرف واشمئزاز شديدين، بحيث شعر حسين بأنه لا يجسر على الرحيل.. آخر شيء يمكن أن يفعله هو أن يرحل.

تقدم خطوة إلى الأمام أكثر ورفع يده ليبدأ الشجار والتحدي.

هنا نفد صبر البلطجي، وبدا له حسين سخيفًا جدًّا ورقيعًا وضعيفًا ولزجًا كذبابة.. فهوى بالسيف على بطنه في ضربة عرضية بارعة.

أنتم تعرفون ما حدث بعدها وكيف صرخت عفاف، بينما هوى حسين ميتًا مرة واحدة.. لم يقل أي شيء، أو ينظر غير مصدق، أو يلقي نظرات لائمة كما يحدث في السينما. لقد كان رحيله صاعقًا ومفاجئًا.

وحتى عندما تكوم على الأرض بدا الجرح في بطنه صغيرًا جدًّا لا يكفي لموت إنسان.. على طريقة «الديفوه» الشهيرة عندما تكون وبرات قصيرة جدًّا في سجادة فتُباع بربع ثمنها.. لقد صار حسين «ديفوه» مع أنه يبدو سليمًا للعين معدومة الخبرة.

عفاف كانت تصرخ بلا انقطاع، بينما تعاون ثلاثة شبان على حمل حسين والابتعاد به عن المكان.. لكن أقلهم خبرة كان يعرف أن هذا جهد ضائع يتم من منطق إكرام الميت دفنه، لا من منطق إنقاذ مصاب.

لقد خسرت الصين خسارة كبرى. هناك عشرات المسابح والأقلام المعطرة والكشافات الصغيرة والمقابس والأمشاط وآلات الخياطة الصغيرة لن تُباع أبدًا.

أما عن شركات المشاركة في الوقت (Time sharing) وشركات الموسوعات وكل الشركات ذات المهام الغامضة فخسارتها لا يمكن وصفها بكلمات..

* * *

الثكل!

* * *

وقف عصام أمام الجدار يحاول أن يقرأ الكلمة:

السنجة

إذن كانت الكلمة هي السنجة منذ البداية.. السنجة التي مزقت حبيبها في لحظة. كذا يبدو الأمر منطقيًا أكثر من السبحة والسيجة والسرنجة.

القصة في هذه الصيغة قابلة للهضم، أكثر من أن تكون السنجة

هي التي ضربت رأس البائع المنحرف، أو هي التي تم إنزالها علامة على الثورة.

نحن نتحدث عن السنجة.. السلاح الأبيض الشبيه بالسيف. السنجة التي أحكمت قبضتها على مصر وصارت لغة العصر.

كانت عفاف تودع العالم.. وتركت رسالة أخيرة تقول إنها انتحرت بسبب السنجة.

الآن يمكننا أن نعرف ما قصة هذه السنجة.

٢١

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفنى.

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.

في المنتدى الثقافي التاسع لشباب الانطلاقة الرابعة لليوبيل الأول لأدباء الأقاليم (أو شيء كهذا).. جلس عصام جوار مراد في الشرفة الضيقة التي تطل على الشارع.. من خلفهما تهدر أصوات الشعراء يلقون قصائدهم الرديئة غالبًا، والتي تداري رداءتها بالكثير من الغموض والتظاهر بالعمق.

البحر يهدر من بعيد مفعمًا بشجن غريب.. يشعر بأنه يختنق وثمة حبات عرق عديدة على جبينه. وتذكر عصام ما تعلمه في المدرسة قديمًا من أن الطقس يكون حارًا جوار البحر ليلًا. إن

البحر يمتص الحرارة طيلة اليوم ثم يتخلى عنها في الليل عندما تبرد الأرض.

قال مراد وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان:

- قلت لك إن شيئًا ما سيقع.. وقد وقع فعلًا.

قال عصام مصححًا:

- لم يقع.. بل هو يقع الآن.. وهو مستمر. لكن النهايات الوردية ما زالت نائية، فهذه ثورة لم يحكم من صنعوها، وإنما تولى غيرهم الحكم بالنيابة.. إن من ثاروا أشبه بشخص استطاع أن يستنبت نبتة نادرة واهنة، وهو يخشى أن يستلبه أحدهم إياها أو يدوس عليها أو يهشمها، وهكذا يستمر الغليان والتوتر.

- الديمقراطية لها ثمن باهظ.. ربما يصل هذا الثمن إلى الحروب الأهلية ذاتها. سوف نحتاج إلى أعوام من الصراع.

لسبب ما تذكَّر عصام وجه نوال.. تذكَّر وجوه «دحديرة الشناوي». خطر له أنه من القسوة أن تطالب هؤلاء بتحمل أعوام أخرى من المعاناة والبؤس. في الوقت نفسه يشعر أن الكلام سهل، وأن إشعال حماس الجماهير هين.. فقط من يشعلون حماس الناس لا يحدث لهم شيء أبدًا، ولا يفقدون أرواحهم أو عيونهم. إن حروف لفظة «ثوروا» هي خمسة أحرف.. يمكن أن تكتبها في خمس ثوانٍ وتنام راضيًا عن نفسك.

هل كتب لهذا البلد التعس أن ينهض.. أم أنه سيظل في المستنقع وكلما حاول النهوض لم يجد ما يتمسك به؟

لا يعرف.. بالفعل لا يعرف.

علمته تجارب شبابه أنه لا شيء يحدث أبدًا، والحق لا ينتصر أبدًا، ودماء من يموتون تذهب هباء، والغد أسود من اليوم دائمًا. فهل حان الوقت لهذه العقيدة المشؤومة أن تزول؟

كان يفكر.

خلايا دماغه صارت حُبلى بالأفكار. هكذا لم يتحمل أكثر.. قال لمراد إنه راغب في الانصراف.. لديه أعمال يجب أن يقوم بها.

سأله مراد:

ـ متى أراك ثانية؟

ـ ربما الأربعاء أو الخميس.. معك نسخة من المفتاح. يمكنك أن تمضي الوقت في الشقة كما تشاء لو لم أكن موجودًا، لكن لا تحضر نساء من فضلك.

ابتسم مراد في خبث. لم يكن يعرف أي تفاصيل عن نشاط صاحبه الجنسي، وكان يعتبر هذه علامة غير صحية.. هذا يدل على أنه عالم أسود مفعم بالعقد. لكنه كان يعتبر أي مطلق شخصًا لا يفيق من دوامة النساء المحيطة به. لهذا لم يحب كثيرًا فكرة أن يمارس عصام ما يروق له بينما يضع القيود الأخلاقية على من حوله، وقرر ألَّا ينفذ هذا المطلب الأخير.

* * *

لقد انقطعت عفاف عن العمل أسبوعًا كاملًا.

لم تذهب إلى أي مكان ولم تتكلم مع أحد.

كانت مشاهد السنجة وهي تمزق أحشاء حسين هي رفيقها الوحيد، وقد أدركت أن الكون كله يصلح شاشة عرض للمشاهد الشنيعة التي نريد نسيانها.

بالنسبة إلى الناس لا أحد يفهم سبب لوعتها وبكائها.. ليست لها صفة رسمية من أي نوع تبرر أن تكون هناك في داره أو أن تحتضن أمه الباكية.. لن يعزيها أحد بالتأكيد.

تمشي في الطرقات حائرة.. لا تعرف إلى أين هي ذاهبة ولا متى تعود. فقط تمشي وتسترجع المشاهد القاسية التي عاشتها، وفي بعض الأوقات تجلس على الرصيف كأنها أصيبت بالبلاهة فجأة.. تحدق في الفراغ.

لم تعد إلى التحرير قطُّ.. لكنها أدركت أنها عائدة عندما تستجمع قواها من جديد. حسين مات وهو يحاول الوصول إلى التحرير، وهي ستفعل هذا...

كانت تسمع أخبارًا متلاطمة من كل صوب. عرفت أن الساعات التالية لمصرع حسين صارت جحيمًا وأن الميدان صار ساحة معركة من العصر الجاهلي، حيث الجمال والبغال تتصارع مع الثوار، والرخام المهشم يطير في كل صوب.

عرفت أن مبارك لم يرحل بعد، وأن الجيش يسيطر على البلاد.

كانت تسمع هذه العبارات، بينما تمضي كسفينة انقطعت حبال مرساتها ومضت بلا مرفأ في المحيط. لا تقصد جزيرة ولا أرضًا، ولو أرادت فلن تجد.

يدها تتحسس المسبحة الصينية المعطرة.. تتحسسها بعصبية إلى أن جاءت اللحظة التي انقطعت فيها.

* * *

الميكروباص يقترب فتشير إليه.

تصعد بجسدها الممشوق الفارع لتجلس جوار النافذة في المقعد قبل الأخير. ترى في مقعد أمامي ذلك الرجل الذي يلاحقها بنظراته.. يبدو أن اسمه إبراهيم أو شيء من هذا القبيل. يتظاهر بأنه ينظر إلى الخلف بطريقة عارضة، لكنها لم تبعد نظراتها عنه كصقر. هكذا كان يصطدم بعينيها في كل لحظة ويفر سريعًا.

لم تكن رائقة المزاج له.. تشعر أن العالم كله يجثم على روحها، وهي في هذه اللحظة لا تطيق أنفاسها فكيف بأنفاس شخص سواها؟

لم تدر متى تسلل ذلك الرجل ليجلس جوارها. له رائحة قوية كالذئاب وضخم الجثة.. غير مهندم كأنه حِرَفي أو شيء من هذا القبيل.

من اللحظة الأولى أسند رأسه إلى مسند المقعد أمامه ـ حيث كان شيخ مسن نائمًا ـ وأغمض عينيه بدوره لينام. نظرت إليه للحظة ثم أدركت أن هناك شيئًا صلبًا حادًّا يوشك على تمزيق صدرها تحت الضلوع.

بصعوبة فهمت الموقف.. الرجل يتظاهر بأنه نائم، لكنه يغرس مطواة بشكل خفي في ضلوعها.. لا يعرف الحقيقة سواه وسواها.. يده مختفية تحت مستوى المقعد.

سمعته يقول بصوت كالفحيح:

ـ صه... سوف ننزل معًا عند السرجة.. أي ضوضاء سوف تنتهي بأن...

وازداد ضغط النصل أكثر...

أدركت أنها وقعت في الشرك.. بدا لها أنه من الممكن أن تصرخ، لكنه سيبدأ بتمزيق اللحم وسوف يحدث ضررًا لا شك فيه.. دعك من أنها ميزت نبرة الجنون والمخدرات في صوته. سوف يشوهها تمامًا قبل أن يفطن أي واحد في الميكروباص إلى أي شيء.. في النهاية سيحولونه إلى عجين.. لكن بعد ماذا؟

ومن مقدمة السيارة التفت ذلك المعجب كما هي عادته. نظرت إليه وهمست بصوت غير مسموع:

ـ مطواة.. مطواة!

لكنه نظر إليها بغباء ثم عاد ينظر أمامه.

كان الذي يهددها يجيد دوره فعلًا.. مجرد رجل منهك نائم لا يعرف ما يدور من حوله. هكذا ظلت متوترة.. تنظر حولها في ذعر باحثة عن حل ما.

رأت ذلك الرجل إبراهيم يستوقف الميكروباص ثم ينزل... غبي.

الميكروباص يمشي وسط الشوارع المنهكة المحطمة، ووسط أحلام الناس التي أبلاها طول الانتظار، ووسط عيون الصبية المفعمة بالفضول، ووسط الأحزان التي فاضت حتى فاض منها نهر النيل.

رفع الرجل الجالس جوارها رأسه وصاح:

ـ السرجة معاك!

ثم اخترق النصل جسدها أكثر علامة على أنها يجب أن تنهض. لم تدر ما تفعل.. ربما كانت فرصة الفرار بالخارج أفضل.

تنهض منحنية وترى أمامها ظهره وردفيه وهو يتقدمها منحنيًا نحو الباب، وقد خطر لها أن تنتظر حتى ينزل ثم تصرخ وتتمسك بالعربة، لكن الخطة كانت أكثر إحكامًا؛ كان هناك من ينزل وراءها وللحظة شعرت بشيء مدبب في ظهرها.. سكين أخرى.. إنهما اثنان إذن!

أخيرًا ترى السرجة جاثمة وسط سحب الغبار بينما الميكروباص يبتعد.. وأدركت أن المكان مقفر وما من أحد هنا.

كانت الأحداث تتحرك بسرعة وقسوة إلى الجهة التي رسمت لها.

وعندما قررت أن تصرخ وأن تركل وأن تعض وأن تخمش وأن تجري، أدركت أنها واهنة جدًّا، وأن صوتها لا وجود له، وأن ركبتيها لا تقدران على حملها، وأن هناك رجالًا كثيرين في السرجة.. إنهم يخرجون تباعًا...

في النهاية وجدت أنهم يقتادونها إلى الداخل.

كانت هناك كومة من القش وقشور السمسم، وكان هناك جوادان يدسان أنفيهما في التبن ويعطسان.. وكانت هناك أكوام من السمسم الذي لم يرَ النار بعد.. هناك معصرة ضخمة تتصاعد منها رائحة الزيت الحار والطحينة القوية. هناك صفائح معدنية براقة متراصة جوار الجدار وقد تم لحامها.. هناك مصباح كيروسين يهدر بلا توقف.. رائحة الكحول الأحمر في كل مكان.. إنهم يقطرون الخل هنا كذلك في القاعة الخلفية.

وفي منتصف المكان رأته واقفًا.

كان هذا هو حماصة...

عرفته من دون أن تسأل.. عرفته من دون أن تراه في النور... عرفته من كومة السلطة والسيطرة التي تناثرت حوله؛ حتى إن أعوانه يجدون صعوبة في الاقتراب منه حتى لا يتعثروا. في كل ركن هناك سلطة ونفوذ تحت قدميك.

سمعت إشاعات كثيرة من قبل تقول إن السرجة القديمة هي موطنه ووكره، وبالطبع لا تجرؤ كتيبة من الشرطة على مداهمة هذا المكان، لكن أحدًا لم يصدق أن حماصة يمكن أن يتواجد في مكان واحد. الآن تعرف أن ما قيل كان دقيقًا فعلًا. إنها في وكر الذئب.. وحدها...

تم كل شيء بسرعة وقسوة كأنه عملية جراحية يجب أن تنتهي حتى لا يتألم المريض أكثر من اللازم...

كانت هناك أربع أيادٍ تسمر ساعديها وكاحليها للأرض.. كأنها ثبتت هناك بأوتاد منذ الخليقة. يقول لها وهو يمزق ثوبها:

ـ لو فتحت فمك سأعرف كيف أغلقه.. لن تحكي أي شيء عما حدث. ولن تحكي أين حدث.

عفاف تلعب في الشارع، وتمر بها أم فوقية.. أم فوقية المرعبة ذات المخالب السوداء والطرحة المتسخة التي تداري ثلاثة أرباع وجهها. بعد عشر دقائق الأم تنادي من الشرفة: اطلعي يا بت يا عفاف.

❊ ❊ ❊

قبل أن تخرج كان هو قد سد الكشك بجسده الضخم.. لم تفهم إلا أنه قبلها في شفتيها بنهم حتى أوشك أن يعضهما، وشمت رائحة أنفاسه الكريهة ولعابه.

ثم شعرت بتلك اليد الغليظة تمتد إلى صدرها الذي ما زال مسطحًا كالرخام وتعبث هنا وهناك.

❊ ❊ ❊

تهرع عفاف إلى البيت فتجد المشهد مريبًا. أم فوقية تجلس على الفراش بينما أم عفاف وخالتها تقفان متأهبتين.. هناك.. هناك أدوات جراحية كاملة في منشفة.. هناك شيء صغير يجب أن تمر به كل فتاة لتصير فتاة حقًا.. أنت عاقلة يا عفاف.. سوف تسمعين كلام خالتك أم فوقية...

❊ ❊ ❊

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة.. كانت هناك مرات.. وبدا أن حماصة لن ينتهي أبدًا.

ثم نهض وشمت رائحة سيجارة محشوة تشعل ثم هو يسأل رجاله إن كان أحدهم يرغب.

بالطبع يرغبون.

- لا تؤذِها.. فهي بنت غلبانة. أنت أولًا يا عبد الظاهر.

يتبادلون المخدرات والنكات البذيئة ويتحدون بعضهم في الفحولة.. فقط هي موضوع المزاح وموضوع الرهان.. والأدهى أن الكلام ليس عنها كله، بل هم يناقشون مختلف أمور الدنيا بينما هم يقومون بهذه المهمة. كأن شخصًا يذبحك وهو يكلم صاحبه عن مشكلة الدروس الخصوصية. من حقك أن تكون أنت موضوع الكلام عندما تُذبح.. في الأمر نوع لا شك فيه من الإهانة.

لا تذكر كم وجهًا محتقنًا مبللًا بالعرق دنا من وجهها.

حرام عليكي ياأمه.. أنا لم أفعل شيئًا!

تسمع صوت اللحم وهو يتمزق بينما أم فوقية تفرغ من مهمتها وتضع الكثير من البن لتمنع النزف... عفاف لن تأكل الأرانب ثانية لأنهم في هذا اليوم واليوم التالي أطعموها مزرعة أرانب كاملة.

حماصة يقول شيئًا ما...

لقد كفت حنجرتها عن إطلاق أصوات، وكفت عيناها عن ذرف الدموع.. وقررت أن تموت هنا والآن.. لكن كيف؟

في النهاية بدا أن كل رجل على ظهر الأرض قد قضى وطره منها..

لو كان هناك رجل في جزيرة في «الملايو» لم ينلها فهذه مشكلته.
ساد الصمت والهدوء...

ظلت على الأرض بضع دقائق.. تشم رائحة الزيت الحار وتسمع نهيق الحمير.

بصعوبة نهضت.

رأت على بعد خطوات حاجزًا من الحديد الزهر عليه أشكال زخرفية، ويبدو أنهم سيركبونه عند مدخل السرجة. جوار الحاجز كانت هناك علبة من «السبراي» الأسود، يتم بها رش الحاجز بلون أسود.. ومجموعة أوراق جرائد ممزقة. العلبة التي كان عبد الظاهر يستعملها للطلاء.

لا تعرف سوى أنها مدت يدها فأمسكت بعلبة «السبراي».. لم يعترضها أحد.

* * *

الانتهاك!

* * *

اتجهت إلى باب السرجة فلم يستوقفها أحد. فقط شعرت بيد تضع على كتفيها عباءة كريهة الرائحة لتداري ثوبها الممزق، ويبدو أنهم جعلوا «توك توك» يوصلها إلى مكان قريب من العمران.. ليست واثقة من أن هذا حدث لكنه هو الأرجح...

لقد انتهى أمر عفاف...

الشيء الوحيد الذي كانت تعرف أنه قادر على تغيير حياتها قد انتزع منها بالقوة وأُتلف... وبالتأكيد لن يستطيع لحم عدة أرانب أن يصلح الخلل في جسدها وروحها.. لا توجد سنجة ميزان تهشم بها رأس حماصة.. لن تقدر.

كانت ترى قدمها من العباءة.. لا.. لا تريد أن ترى أي جزء من هذا الجسد بعد اليوم.. لم يعد لها، بل هو ضدها.

عرفت أنها ستموت.. لن تتحمل شمس يوم آخر على جلدها.. لكن عليها أولًا أن تترك رسالتها الغامضة الأخيرة...

٢٢

وقف عصام أمام الجدار.

كان القطار يمر في هذه اللحظات ويهز الكون كله.. يهز النفوس.. يهز القلوب.. يهز العشش الحقيرة التي لم تستطع أن تخفي أسرارها، فانفتحت كجرح مقرز... يهز المُسلَّمات.

لكنه لم ينظر إلى الخلف.. لقد اعتاد كل شيء في الدحديرة فلم يعد يبالي.

الكلمة التي خطتها يد عفاف الراجفة هي:

السرجة

هذه هي! بالتأكيد هي...

هكذا يبدو الأمر معقولًا. كانت تقول إنها فقدت حياتها في السرجة.. فقدت كل شيء... وهذه هي رسالتها الأخيرة للوجود.

السرجة حيث اختلطت رائحة الزيت الحار والطحينة والكحول

والعرق والمني والشهوة والدم.. هناك فقدت عفاف آخر مبرر للحياة. ضربة أولى ساحقة مع رحيل حسين، ثم ضربة أخيرة قاضية مع الاغتصاب. على الأرجح هي لم تعد إلى أمها قطٌّ.

السرجة حيث ينتظر حماصة وأعوانه.

السرجة.. حيث وجدت علبة «السبراي» التي كتبت بها.

* * *

لساعات طويلة ظل في الشقة عاجزًا عن الخروج.. عاجزًا عن الكتابة.

كان يتذكر عفاف الرشيقة الناضجة وهي تنطلق في شارع النوساني لترفل هذه الطرحة أو تلك، مفعمة بالزهو بأنوثتها، وعلى الرغم من الفقر فهي تتوقع أن الغد أفضل.

تبًّا.. لقد اشتهاها كثيرًا.. ولهذا لم يتحمل أن تكون نهايتها بهذه القسوة. حاول أن يكتب شيئًا أو شيئين، لكن الواقع ظل حرونًا يأبى أن يقبل السرج على كاهله... الواقع الجامح راح يركل بحوافره ويبعثر الغبار هنا وهناك، وينفخ من منخريه.

هناك أشياء لا تقدر على كتابتها أبدًا.

أشعل لفافة تبغ ووقف في الشرفة يفكر.

الهواء بارد.. بارد... لكن هذا يبرد قلبه شخصيًّا. بعد أيام يأتي المغول ومعهم أطفالهم وثيابهم وصخبهم وأجهزة مذياعهم وشهواتهم وقمصانهم المشجرة وآنية طهيهم... الزحام.. لن يكون هذا المشهد مرة أخرى.

كان يفكر في حماصة هذه المرَّة.

لم يستطع فهم حماصة قطُّ ولم يستطع كتابة حرف عنه.

هو قادر على الكتابة عن بلطجي أجير يتقاضى خمسين جنيهًا ليذبح الثوار.

قادر على الكتابة عن ضابط أمن مركزي يقف وسط الزحام صارخًا في جنوده.

قادر على الكتابة عن شاب ثوري يحمل لافتة طبعها في مكتب الكمبيوتر الذي يعمل به.

لكنه عاجز عن اختراق عالم حماصة. مَن هو؟ هل مع الثورة أم ضدها؟ هل هو منا أم منهم؟ الواجب أن يكون منحازًا للأثرياء، فلماذا يكتفي بأن يجعل حياة المطحونين مثله جحيمًا؟ وما سر هيبته واستخفافه بالشُّرطة؟ مَن أعطاه هذا الجبروت سوى السنجة، فلماذا لا تنتهي حياته بطلق ناري؟

لو كان ينوي أن يكتب عن حماصة فعليه أن يفهمه.. لا أحد يكتب عن صنم لا يعرف اسمه ولا أبعاده.

هناك نقطة مسدودة، وعليه أن يتحسس الجدار بلا توقف، حتى يجد ثغرة جديدة يخترقها.

* * *

عندما اصطحب مراد تلك الفتاة معه، لم تبدُ رديئة.. كانت ممشوقة ولا بأس بها على الإطلاق... توقف بسيارته أمام البناية ونظر إلى أعلى.

المكان يشبه المقابر، فلا يوجد بواب متلصص، ولا جارة عجوز فضولية، ولا حتى رجل يتظاهر بالحمية والغيرة على الشرف بينما هو يشعر بحسد قاتل.

بدأت الفتاة تتوتر.. وبدا كأنها تعرف المكان.

ـ هل هذا بيتك؟

ـ نعم.. هل تعرفين البناية؟

ظلت صامتة وهي تصعد الدرج بكثير من العسر.. تذكر بوضوح تلك الليلة السوداء والقيء والإسهال والتسمم.. هذه البناية شهدتها في أتعس حالة يمكن أن تمر بها أنثى.

ازداد توترها عندما أولج المفتاح في باب الشقة.. عندما دلف إلى الداخل.. عرفت الشقة على الفور.. ازدادت فوضى لكنها هي هي...

سألها عن اسمها وبدا أنه لا يهتم أصلًا بالإجابة.. فقالت بلا مبالاة:

ـ نوال.

كان هو قد نسي الاسم على كل حال، لكنه قال:

ـ اسمك جميل فعلًا.

كان يؤمن بأن اسم رشا مثير جنسيًّا.. وهي.. ألم يكن اسمها رشا؟ أعتقد أنها قالت هذا...

دست سيجارة بين شفتيها وقالت كلمتها الخالدة:

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

دس يده في جيبه وأخرج قداحة. رائحة التبغ ملأت المكان مع الدخان.

نادى بصوت عالٍ: عصام.. عصام...

لا أحد.

عصام ليس هنا، وهو تمنى ذلك كثيرًا.. عصام مخبول ومتقلب وقد يطرد الفتاة طردًا.. هذا وارد جدًّا...

هناك كوب شاي على مقعد بلاستيكي.. هناك شطائر فلافل تم قضم جزء منها. لمس كوب الشاي فأثار دهشته أنه دافئ.. الشطائر كذلك طازجة، ومن الواضح أنه لم يمر عليها أكثر من ساعتين.. لقد كان عصام هنا منذ دقائق إذن.

أخرج الهاتف المحمول وطلب رقم عصام. انتظر بضع دقائق.. جرس بلا رد.. جرَّب مرتين، وفي النهاية قرر أنه قام بما ينبغي عليه.

هكذا اصطحبها إلى الغرفة الداخلية وبدأت الليلة.. وفي الساعات التالية سيعرف أنها كانت هنا من قبل.. سيعرف هذا ولن يعرف قصة القيء وتسمم الطعام. إنها تفضل أن تزعم أنها مارست الجنس على أن تعترف أنها منحت الزبون ليلة حافلة من الإسهال. هكذا سوف يقول لنفسه إن عصام وغد كبير.. وأخطر الأوغاد من لا يبدون كذلك.

قالت له في شبه رجاء قبل أن تنزع حذاءها:

ـ عندما ننتهي.. هل تشتري لي ساندويتش هامبرجر؟

ابتسم من شدة شراهتها وهز رأسه موافقًا.. غالبًا سيفعل فهي غلبانة.. هنا أسرعت تصحح ما قالته:

ـ لا.. ليكن فاهيتا.. ساندويتش فاهيتا.

ـ هل تحبين الفاهيتا؟

ـ لا أعرف ما هي لكن اسمها جميل.

لعن «أبو الفقر» والانفتاح والعولمة وهو يمرغ شفتيه في جذور عنقها.. ليته يفرغ من هذا ويصرفها قبل أن يعود عصام.. عصام مجنون وقد يحدث فضيحة.

* * *

إبراهيم الذي لم يعد يعرف هل هو حي فعلًا، أم هو ميت في قبره يحلم، أعد لنفسه كوبًا من مزيج لبن جوز الهند والأناناس والروم.. كل هذا في كوب كبير ووضع الشفاط وشريحة أناناس.

اتجه إلى الشرفة ليراقب المشهد الذي عشقه: الشمس تنحدر إلى البحر.. كأنها تذوب فيه وتصبغه.. قرص فوار برتقالي عملاق...

جاءت ناردين وهي تلبس ذلك المايوه الفاضح الذي نصحها مرارًا بعدم ارتدائه أمام شاهين. وكانت تعرف تأثير ذلك عليه جيدًا... باختصار كانت تلاعبه كما يلاعب القط الفأر.

قال لها في حنق:

ـ ليس الآن أرجوك... في عقلي ألف ثعبان يلتهم ألف فأر.

كان يفكر في بريطانيا.. في البرد.. في الحياة باقي العمر هناك وسط الضباب ومع قوم لا يتكلمون سوى الإنجليزية، لكنه بالتأكيد سوف يجد نفسه وسط الجالية العربية هناك.. هناك الكثير من اللصوص الفارين ولسوف يندمج معهم بشكل جيد.

قالت له:

ـ تتأخر كثيرًا. لو صدر قرار بمنع السفر.

كان يعرف السبب.. لا يريد أن يشعر هؤلاء أنه هارب وأنه خائف... لا يريد أن يمنحهم هذه النشوة.. يريد أن يتجه إلى الباب ببطء، ويقف هناك للحظات في فرجة الباب.. يلتفت للخلف ويقول شيئًا ثم يواصل سيره بتؤدة...

يجب ألَّا يمنحهم المشهد الذي يحلمون به.. يجب ألَّا يرضيهم.

قال لها وهو يشعل سيجارًا آخر:

ـ سوف أحتاج إلى أسبوع لترتيب كل شيء.. المحامون يعملون ليل نهار.

وعندما نام حلم.

حلم بالمقهى والدحديرة.. رأى جمال الفقي يحمل كيسًا غامضًا ويتوارى، ورأى الفتاة عفاف وقد تلطخ جيدها بالدم.. رأى مصطفى المزين يتكلم عن الموت في اشتهاء.. رأى نفسه يهرع للورشة ويستقل الميكروباص.

رأى هذا كله، وظل يتساءل إن كان جثة نخرة تحلم في قبرها، أم أن هذا الثراء هو واقعه فعلًا؟

سمع الصبية الثلاثة الذين يلعبون بالكرة ذلك الصوت الغريب من القبر.

في ضوء العصر الواهن بدا لهم هذا مخيفًا، وقال أحدهم إن الجثث نائمة تحلم.. ربما تئن كذلك...

لم ينتظروا ليعرفوا أكثر، بل فروا مبتعدين...

٢٢

لليلة التالية ظل عصام مختفيًا.

قضى مراد وقتًا طويلًا في الشقة، وجلب معه بعض الطعام ليتخذ موضعه حيث جبل أوراق الصحف الملوثة بالزيت والأكياس البلاستيكية التي تفوح منها رائحة دجاج عطن أو سمك عطن أو فول عطن.

الحياة هنا كانت مريحة منعزلة وتروق له، ولو عاش هنا لاستطاع أن يكتب عملًا بالغ الأهمية، لكنه كان يغير هذا الرأي عندما يقضي حاجته ويكتشف أن المياه ضيف عزيز قلما يأتي. على قدر علمه لم يكتب أي عمل فني مهم في التاريخ بمستقيم ممتلئ.

اختفاء عصام أقلقه بشكل بالغ، وهذا القلق جعله عاجزًا عن إحياء المهرجانات الجنسية التي كان ينوي أن يحييها.

جرب الاتصال به مرارًا لكنه لم يكن يعرف رقم طليقته، كما أن استدعاء الشرطة بدا فعلًا حماسيًّا أكثر من اللازم.. فليتنظر قليلًا.

عصام قد اختفى، والغريب أن هذا حدث فجأة لدرجة أنه لم يستكمل شرب كوب الشاي الذي ظل دافئًا.

لأسباب لا أذكرها بالضبط قرر أن يتفقد كومة الأوراق الموجودة في غرفة النوم على الكومود، وقد اكتشف أنها قصة.. قصة كتبها عصام بخطه. لم يكن عصام قادرًا على استيعاب الكمبيوتر وبرامج تنسيق الكلمات أبدًا. هناك أشخاص تحيط بعقولهم أسوار منيعة خرسانية تجعل وصول الكمبيوتر إلى هناك مستحيلًا، وقد كان عصام بالتأكيد من هؤلاء أو هو هؤلاء كلهم.

القصة تحمل عنوان «دحديرة الشناوي».

كان مراد قد صار محترفًا منذ زمن، ويعرف جيدًا تلك العناوين ذات المذاق الذي يروق للصحافة.. بالفعل «دحديرة الشناوي» عنوان مناسب جدًّا بصرف النظر عما يوجد تحته. المكان هو البطل.. ثم ابدأ في نثر شخصيات متباينة.. حيلة لا تفشل أبدًا.

لكن أين هذه الدحديرة؟ لم يسمع قطُّ عن موضع كهذا.

يبدو أن عليه مطالعة هذه القصة والكفاح مع خط عصام المتلوي شديد القبح. هكذا يمكنه أن يفهم ما كان عصام يفكر فيه وقد يقود هذا لمعرفة أين ذهب.

* * *

لم يكن عصام يعرف موقع السرجة.

هكذا مشى في ذلك الطريق الطويل خلف مصنع الحلوى، حيث قطع الحجارة والطوب ترغمه على أن يضع يده على الجدار معظم الوقت، بينما لو ابتعد أكثر لوجد أنه يمشي على قضيب القطار نفسه.

هناك صبية يلهون بإطار دراجة قديم، سألهم عن مكان السرجة.

كما هي العادة.. نظرات الشك والتردد... نظرات الكراهية.

صبي ميكانيكي من الطراز الذي اصطلح على تسميته «بلية» بثياب يقطر منها الزيت. هذا الطراز من الصبية متشكك فضولي للأبد. يتوقف ويسأله عما يريد؟ السرجة؟

ـ لا بد لك من أن تمشي بمحاذاة جدار مصنع الحلاوة.. لا بد من أن تدور حول الجباسة.. لا بد من أن تدور جوار الزاوية.. عربة الفول على يمينك.. هناك امرأة تبيع الباذنجان المقلي والسمك الصغير. هناك متجر للحام البوابير على اليسار.. هناك منحدر. في نهاية المنحدر تجد السرجة.

السرجة.. السرجة التي تنتظر وتبدو كأنها كانت هناك منذ الأزل.. السرجة التي فقدت فيها عفاف أحلامها وحياتها.. السرجة التي تقف وسط الغبار والتراب وحر القيلولة. هناك حمار ينزلون جوال سمسم من على ظهره.. هناك عربة ببغل يتم تحميلها.. هناك مَن يجلس على الباب يدخن سيجارة.. رجل يجلس بفانلة داخلية وسروال مهلهل وحافي القدمين.

تتقدم منه بخطوات مترددة... تسأله عن حماصة.

ينظر إليك للحظة.. ثم يسألك بدوره:

ـ فيمَ تريده؟

هذه الطريقة التي تثير غيظك.. لا بد من أن تشرح قصة حياتك كلها إذا أردت أن تسأل عن شيء، وفي ٩٠٪ من الحالات تكون النهاية هي: لا أعرف أين هو.. اسأل!

تقول له:

ـ هذا شيء لا يمكن شرحه إلا لحماصة.

هكذا تتعامل بسذاجة كطفل. كل العالم يبحث عن حماصة.. آلاف الموتورين يبحثون عن حماصة.. فلماذا تفترض أنهم سيقودونك له لمجرد أنك هو أنت؟

لهذا يقول لك الرجل وهو يلقي بلفافة التبغ:

ـ تعالَ معي.. بالداخل.. حماصة هناك.

أنت تعرف أنها لعبة.. تعرف أنه يخدعك كأنك صبي في الخامسة...

لكن هذا هو السبيل الوحيد. المكان الوحيد الذي تعرف أن حماصة كان فيه أو يتردد عليه.

هنا خطر له خاطر مخيف.. هل كتبت عفاف كلمة «السرجة» لتنذره هو بالذات من الذهاب إلى السرجة؟ احتمال وارد فعلًا.

هناك في منتصف المكان كانت فرجة في السقف، ينحدر منها

شعاع الضوء بينما ذرات الغبار تعبث فيه وتتراقص، وذلك التأثير الذي يذكرك بشعاع السينما.. هل كان اسمها حركة براونية في دروس الفيزياء؟ لا يذكر.. هو لم يبرع في هذا العلم قطُّ، لكنه برع في علم الذهاب إلى الأماكن الخطأ.

في مركز الشعاع كان الرجل يقف وقد غمرت الظلال وجهه وعقد ذراعيه على صدره. وعرفه على الفور، كما يسهل لنا لو رأينا فيلمًا بلغة «البيديش» أو اللغة الصربية أن نعرف البطل.. تلك الهالة الغامضة التي تجعله هو. كان هذا هو حماصة بالتأكيد.

حماصة «السبع».. الذي أرعب رجال الشرطة على مدى أعوام طويلة. والذي لا يجسر أي واحد من أهل الدحديرة على نطق اسمه بصوت عالٍ كأنه هو الشيطان ذاته.

ابتسم.. أنت تقف أمام حماصة.

* * *

قضى مراد وقتًا طويلًا مع الرواية التي لم تكتمل.

كانت هناك أسئلة لا تنتهي.

أشعل لفافة تبغ ووقف في الشرفة يرمق المدينة العنينة المنهكة.. هواء البحر يهب فيطير الدخان والرماد ليغطي حاجبيه.. لكنه لا يتحرك.

هناك خلط أزمنة لا يصدق في هذه الرواية.. خلط واضح لأي طفل.

كيف رأى عصام حادث التحرش بالطفلة عفاف، ثم حضر موتها وهي شابة؟

إبراهيم مات قبل الثورة كما هو واضح، ومات بسبب سرطان الكبد. وإبراهيم حضر جانبًا من خطف عفاف وكانت تحاول أن تُفهمه بلا كلمات أن هناك من يُهددها.

عفاف اختُطفت وماتت بعد الثورة.. هذا مؤكد.. فكيف تستقيم الأمور؟

أين تقع «دحديرة الشناوي»؟ كل شيء يوحي بأنها حي شعبي في القاهرة، لكنه لم يسمع عنها قطُّ.

من الواضح أن عصام ذهب إلى هناك وتعامل مع الأبطال.. وحاول أن يندمج معهم وفشل.

كيف.. بينما عصام يقيم في هذه المدينة الساحلية الصغيرة ولا يغادرها إلا لندوات أدبية قصيرة هنا وهناك؟

يمكن بسهولة أن تفترض أن نوال بائعة الهوى التي كانت هنا منذ أيام هي نفسها عفاف.. أو عفاف قد خرجت من عباءتها.. بالمناسبة: ما هي مهنة عفاف؟ إنها موجودة في كل مكان وتمارس كل المهن حسب الرواية.

هناك حقيقة أخرى يجب فهمها.. الشاي كان دافئًا والشطائر طازجة.

عصام موجود في النص.. لا شك في هذا... عصام من شخصيات القصة.

كان الصداع يوشك على تفجير رأسه.

هناك تفسير سهل وبسيط بالتأكيد غير ما تفكر فيه.. إن ما تفكر

فيه خطأ.. هذيان.. هل تعرف السبب يا مراد؟ لأن الروايات لا تبتلع مؤلفيها ليظلوا بداخلها إلى الأبد ويعجزوا عن العودة.

لا يوجد شيء كهذا.. ولو افترضته فأنت قد بدأت تجن...

النسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

عصام.

أنا مراد صديقك.

هل تسمعني؟

أنا أسترجع كلماتك عن الثورة.. عن الفقر.. عن الثورات التي لا تنجح أبدًا.. وإنني لأتساءل إن كنت تسمعني؟ هل أنت نائم في قبر؟ هل أنت ضال كروح بين صفحات كتاب؟

في الأساطير الإغريقية اختطف «بلوتو» «برسفونية»، وعندما عبر بها إلى مملكة «هيدز» تساقط اللبن من نهديها على الطريق.. الأرواح كانت تجد هذه القطرات وترشفها فتستطيع الكلام وإلقاء الشعر بشكل وقتي.. في قصة أخرى كان لا بد من دم مسفوك كي يستطيع الشبح أن يتجسد في صورة بشرية.

أتراك بحاجة إلى قطرات لبن؟ أتراك بحاجة إلى دم مسفوك؟

لقد بحث رجال الشرطة جيدًا.. لا توجد «دحديرة شناوي» في مصر قرب قضيب القطار أو بعيدًا عنه، وليس هناك شارع النوساني

ولا شارع الحكمة قرب هذه الدحديرة، ولم يسمعوا عن مسجل خطر فار اسمه حماصة.

كل هذا وليد خيالك يا عصام.. لكنك صرت جزءًا منه.. صرت جزءًا من حلمك إلى الأبد...

أنت صنعت هؤلاء، لكنهم لم يمنحوك احترامًا أو تقديرًا، وتجاهلوك وارتابوا فيك.. ربما يكونون قد فتكوا بك كما فعلت أي قبيلة بدائية مع الأب. لكنك على الأقل قد صرت منهم وفيهم إلى الأبد...

قد عرفتك جيدًا.. وأثق أنك حويت في داخلك لمسة من كل من كتبت عنهم. فيك بلطجي يستلب كل شيء بالسلاح مثل حماصة، وفيك العاهرة التي تبيع لحمها مقابل وجبة عشاء، وفيك السادي الذي يعشق طقوس الموت، وفيك الحالم الأبدي الذي لا يعرف إن كان هو نفسه حلمًا أم حقيقة.

إنني هنا في المكتبة أجلس إلى منضدة صغيرة وسط بخار «الكابتشينو» المحبب، جوار الملصق الذي يحمل اسمي، وسط القارئات اللاتي راقت لهن روايتي «الدحديرة». يلتقطن عشرات الصور لي في أثناء التوقيع. هذه الرواية ناجحة فعلًا. ضوء الفلاش يلتمع. والنسوة يرحن ويجئن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

لكني أتوقف.

هناك عبر الزجاج المتسخ الذي صار ضبابيًا أرى الجانب الآخر

من الطريق. أرى ذلك الجدار الأبيض وأرى ما يشبه فتاة ظهرها لي، تقف هناك في ضوء الغسق الخافت.. هل هي تحمل علبة «سبراي» ترجها ثم تخط بها كلمات؟

لا أدري حقًا.. لست على يقين من شيء. لربما لو كنت بالخارج لقرأت لفظة «السنجة» ولربما سمعت صوت فس س س س! لربما هناك في مكان ما عفاف أخرى تنوي أن تنهي حياتها بعدما انتهت فعلًا.

نصيحتي الوحيدة لك يا عصام هي ألا تعود.

سوف تبدو عودتك مبتذلة سخيفة جدًّا بعد هذا كله. الشيء الذي يجعل لحياتك قيمة هو أنك لم تعد هنا.. هناك معنى رمزي لاختفائك وإن كنت غير متأكد من أنني أفهمه جيدًا.

اختفِ يا عصام.

اختفِ.

ولتبقَ كذلك إلى الأبد.

مصر - طنطا

٢٠١٢